

## الفصل الرابع: موقف الجاحظ من الحركات السياسية والفرق الدينية

أولاً: الشعوبية

ثانياً: الزندقة

ثالثاً: الشيعة

رابعاً: الخوارج

خامساً: المعتزلة

يعد الجاحظ من أوائل الكتّاب الذين وقفوا في وجه الحركات الهدامة التي هدفت إلى تقليل شأن التراث الحضاري العربي والإسلامي، فلم تستطع تلك الحركات التي كانت تأمل من قيام الدعوة العباسية تحقيق مأربها في رفع شعار التسوية ولاحقا من خلال الشعوبية في كافة معانيها أن تحقق غايتها وأهدافها، بل إنها خابت، مما جعلها تقوم بردة فعل صريحة من خلال تيار الشعوبية المعادي للعرب والمسلمين[1].

الجاحظ لم يكن دائما كاتب سلطة، ولكنه أيضا كاتب حمل مسؤولية أمة وحضارة، فوقف وبكل ما أوتي من ملكات اللغة ضد تلك الحركات الهدامة التي تستهدف الأمة الإسلامية. فكانت كتاباته تخفي ورائها أهدافا ثقافية واجتماعية ودينية سواء كانت مباشرة وظاهرة للعيان أم مبطنة لا يصرح بها. فكانت كتاباته في هذا المجال مرنة وواسعة الأفق، قامت على عرض التراث العربي الإسلامي مما جعله موضع قبول من كافة الناس، وتعد حركة الشعوبية والزندقة من أكثر الحركات التي تناولها الجاحظ في كتاباته، كاشفا أهدافها ونزعاتها[2]. إضافة إلى ذلك، فقد عرض الجاحظ في ثنايا بعض مصنفاته، أو أفرد رسائل خاصة للحركات السياسية التي ظهرت في العصرين الأموي والعباسي، وكذلك تناول عدداً من الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج والمعتزلة، وسيتم عرض تلك الفرق على النحو التالي:

## أولاً: الشعوبية

تمثل الشعوبية جانباً من محاولات شعوب غير عربية ضرب السلطان العربي، عن طريق الفكر والعقيدة، فقد بدأت الحركة الشعوبية في المراحل الأخيرة للدولة الأموية، واندفعت بقوة في العصر العباسي[3]. أما عن معنى كلمة شعوبية فهي: "**الذين يرون تفضيل العجم على العرب ويتمنون عود الملك إلى العجم**"[4] وهي عبارة عن نزعة في العصر العباسي تنكر تفضيل العرب

١ - الدوري، عبد العزيز. الجذور التاريخية للشعوبية، ط ٣، دار الطليعة، بيروت: ١٩٨١م، ص٩- ١٣، ص٧٥(سيشار إليه فيما بعد: الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية). سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص١٤٤. فوزي، الخلافة العباسية، جـ ١، ص ١٦٤-١٦٥.

٢ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٩. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص ١٤٤. فوزي، الخلافة العباسية، جـ ١، ص ١٦٤-١٦٥.

٣ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٩. القارصي، محمد علي. الرمز والمطلق في رد الجاحظ على الشعوبية، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد ٥١، الجامعة التونسية، تونس: ٢٠٠٦م، ص ٢١٩. (سيشار إليه فيما بعد: القارصي، الرمز والمطلق).

٤ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٨٥

على غيرهم وتحاول الحط منهم، ويطلق على الواحد منهم اسم شعوبي[1]. وقد عرفها القرطبي بقوله: "**هي حركة تبغض العرب وتفضل العجم**"[2]. كما تعرف أيضا " **محتقر أمر العرب وهم الشعوب**"[3]. كما تعني الشعوبية تعصب كل شعب لقوميته وحضارته وبغض العرب[4].

استفحلت الشعوبية في عصر العباسيين في العراق بسبب وقوعه كحد فاصل بين العرب والعجم[5]، وقد وقف الجاحظ في وجه هذه الحركة متصدياً لها ومدافعاً عن اللغة العربية والعرب فخصص لها مجموعة من المؤلفات مثل رسالة مناقب الترك، ورسالة فخر السودان على البيضان اللتين تصوران الحركة الشعوبية تصويرا واضحا[6].

عرض الجاحظ في مصنفاته المراحل التي مرت على الشعوبية موضحا أن بدايتها كان منذ بدأ الجدال في الدين والتمادي على العرب وصولا إلى مرحلة الشعوبية في أوجهها، فيقول: "**إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أولُ ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقلُ به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة**"[7]. وعبارة الجاحظ هنا تصور بدقة العلاقة بين العداء للعرب والشعوبية باعتبارهما تيارًا معاديًا للعرب والإسلام معًا. إن الأساس الذي تصدى الجاحظ للرد عليه هو ما ذهبت إليه الشعوبية ومن يتعصب للعجمية، فإذا أبغض العرب أبغض كل ما يمت لهم بصلة حتى الدين واللغة لأنهما قرينتان للعرب.

---

١ ـ غلبت الشعوب على جيل العجم، حتى قيل لمحتقر أمر العرب. والشعوبي: الذي يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلا على غيرهم. لسان العرب، جـ ١، ص ٥٠٠

٢ ـ القرطبي، محمد بن أحمد(ت: ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م). تفسير القرطبي، دار الشعب، القاهرة: ١٩٦٤م، جـ١١، ص١٨٩ (سيشار إليه فيما بعد: القرطبي، تفسير القرطبي).

٣ ـ لسان العرب، جـ ٥، ص ٥٠٠.

٤ ـ اشتدت الحركة الشعوبية في العصر العباسي ونجمت عن تعدد الشعوب التي ضمها المجتمع العباسي من فرس وزنج وروم وهنود إلى جانب العرب الذين يمثلون الطبقة الحاكمة. إذ سمحت الحرية الفكرية التي قام بها الخلفاء العباسيون في نشوء هذه الحركة وما رادفها من الزندقة، فكانت محاولة هذه الشعوب إثبات وجودها والادلال بمآثرها وحضاراتها والبرهنة أن العرب ليسوا أفضل من سائر الأمم. كان أول ظهور لهذه الحركة في العصر الأموي، إلا أنها ظهرت وانتشرت للعيان في بدايات العصر العباسي. انظر: الدوري، عبد العزيز. الجذور التاريخية للشعوبية. ص ٩.

٥ ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٩-١٠.

٦ ـ راجع رسائل الجاحظ: رسالة مناقب الترك ورسالة فخر السودان على البيضان.

٧ ـ الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص ١٣١

ومن الأسباب الرئيسة التي حملت الجاحظ على وضع كتاب "البيان والتبيين" الرد على الشعوبية التي طعنت في بلاغة العرب وموهبتهم الخطابية. ونستنتج ذلك من خلال أنه تناول الشعوبية في الجزء الثاني إذ استهله بالعبارة التالية:" **أردنا أبقاك الله أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم ...** "[١]. كما تناولها مرة أخرى في الجزء الثالث في باب العصا. ومن الملاحظ أنه كلما استطرد في الحديث عن مواضيع أخرى يعود للشعوبية ليكمل ما بدأه، وهكذا دواليك حتى أخذ هذا الباب نسبة كبيرة من الجزء الثالث من كتاب البيان[٢]. وهو في كل ذلك يعرض أشكال مفصلة لدعاوي الشعوب الأعجمية في تفوقهم على العرب والإشادة بماضيهم وخصالهم وأفعالهم[٣].

كان وراء موقف الجاحظ من الحركة الشعوبية دافعان، الدافع الأول: يتمثل في الدفاع عن الإسلام ضد هجمات الشعوبية، والدافع الثاني: يتمثل في دعم خلفاء بني العباس له والذين طلبوا منه أن يقوم بدوره في الرد على هؤلاء الشعوبية، ثم ولاؤه للعرب فيرد على الهجمات التي تطال العرب والعروبة. لذا جاءت كتاباته عن الشعوبية في أغلب مناحي مؤلفاته.

وقد أدرك الجاحظ الدور الخطير الذي يلعبه الشعوبيون من خلال الأدب والشعر، لأجل الترويج لأفكارهم ومبادئهم فقد دأبت الحركة الشعوبية على استخدام الأدب في الترويج لأفكارهم، وزرع بذور الكراهية والعنصرية في نفوس أبناء الفرس تجاه العرب خاصة والإسلام عامة[٤]. ونظراً لسهولة حفظ الشعر والتصاقه بعقول القراء فقد نفثوا سمومهم في هذا الشعر فكثيرة هي القصائد التي تمجد الفرس والتي أشار إليها الجاحظ، كما أشار إلى أشهر شعرائهم في حديثه عن الزندقة[٥].

فكان موقف الجاحظ النقدي من الشعوبية رداً على تلك الافتراءات الشعرية على العرب، ويعد هذا الموقف شيئاً جديداً، فهو في صراعه ضد الشعوبية يرى في الشعر مادة المعرفة، وهو في موقفه الثقافي الحضاري يحاول أن يرى من الزاوية العقلية ذلك التفاوت في

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٢٢١

٢ - راجع الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثالث باب العصا.

٣ - إن الحاجة الملحة للرد على مطاعن الشعوبيين في الحط من قيم العرب قد ساعد على توسعة العلوم التاريخية. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص١٩٦.

٤ - السامرائي، عبدالله سلوم. الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، المكتبة الوطنية، بغداد: ١٩٨٤م، ص٧٦ (سيشار إليه فيما بعد: السامرائي، الشعوبية).

٥ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٠.

الشعر بين العرق العربي وغير العربي وبين البادية والحاضرة[1]، أي أن يلحظ أثر الجنس والبيئة. ولكن نقد الجاحظ - إذا استثنينا كتابه في نظم القرآن - لم يكن سوى مكمل لنشاطه الفكري عامة[2].

تنكر الشعوبية من خلال الشعر وحدة العرب محتجة بوجود أنساب مختلفة كالقحطانية والعدنانية، يرد عليها الجاحظ ويحدد مقومات ينبغي على كل الأمة الإسلامية الالتفات حولها بقوله: **"فإن قلت: فكيف كان أولادهما( قحطان وعدنان) جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوة. قلنا: إن العرب لما كانت واحدةً فاستووا في التربة وفي اللغة، والشمائل والهمة، وفي الأنف والحمية، وفي الأخلاق والسجية، فسكبوا سبكاً واحداً، وأفرغوا إفراغاً واحداً، وكان القالب واحداً، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوي الأرحام، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب، وصارت هذه الأسباب ولادةً أخرى"**[3] والجاحظ لا يحسب النسب أو العنصر أساس تكوين الأمة، بل يرى في اللغة والطباع والسجايا، وفي البيئة الجغرافية المقومات التي تكون الأمة. وطبيعي أن يكون هذا المفهوم أكثر ثباتاً وأبعد أثرا من المفهوم العنصري الذي اتخذته الشعوبية، وأن يلعب دوره في توسع العروبة وفي صمودها أمام النظرة الضيقة التي تحدتها[4].

**"قال شاعر الشعوبية للعرب في قصيدة طويلة:**

**زعمتم بان الترك أبناء مذحج ... وبينكم قربى وبين البرابر**

**وذلكم نسل ابن ضبة باسل ... وصوفان أنسال كثير الجرائر**

**وقال آخر:**

**متى كانت الأتراك أبناء مذحج ... ألا إن في الدنيا عجيبا لمن عجب**[5]

حيث كانت أفكار الشعوبية توجه بعناية في صورة كتب مزخرفة تستهدف أهواء الناس[1]. **" ثم اعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا**

---

١ - المجالي، رابعة. صورة الأقوام الغير عربية في حيوان للجاحظ، حولية آداب عين شمس، المجلد ٤٠، مصر: ٢٠١٢م، ص ١٠٥ (سيشار إليه فيما بعد: المجالي).

٢ - العاكوب، التفكير النقدي، ص ١٠.

٣ - الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص ٤٧٧

٤ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٥-٧٦.

٥ - الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص٥١٢.

لعرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة"[2] والجاحظ، وإن انتصر للعرب ضد الشعوبية، لم يرتكب الخطأ الذي ارتكبه غيره، فهو يذهب إلى أن الأمم ينبغي أن تكف عن البغضاء والتعصب لمزاياها، وأن تتعاون وتتآلف لأن لكل أمة مزايا ونقائص.

ينسب الجاحظ للعرب الفضل على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة ويناظر في ذلك الشعوبية، ويسفه أحلامهم في إنكار ذلك، ثم يقول: **"ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة، من القصيدة والأرجاز، والمنثور والأسجاع، ومن المزدوج ومما لا يزدوج، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعار الناس اليوم، ولا ارفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والشيء القليل"**[3].

كما طعنت الشعوبية على العرب ضعف ملكتهم الخطابية، وقالت إنهم لا يضاهون الفرس واليونان والهنود في مضمار الخطابة والبلاغة. فيرد عليهم الجاحظ أن ملكة العرب الخطابية أمر ظاهر جلي لا يحتاج إلى برهان. ويكفي أن نأخذ بيد الشعوبي وندخله بلاد العرب الخلص، معدن الفصاحة، ونوقفه على خطيب مصقع أو شاعر مفلق ليعلم الحق ويبصر الشاهد عيانا[4]. ولذلك يقطع الجاحظ بأن العرب أخطب الأمم **"والخطابة شيء في جميع الأمم، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة، حتى أن الزنج مع الغثارة[5]، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحد[6] وغلظ الحس وفساد المزاج، لتطيل الخطب، وتفوق في ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطل وأجهل. وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس وأخطب الفرس أهل فارس، وأعذبهم كلاما وأسهلهم مخرجا وأحسنهم دلا وأشدهم فيه تحكما، أهل مرو، وأفصحهم بالفارسية الدرية[7]، وباللغة الفهلوية[8]، أهل قصبة**

---

١- فوزي، فاروق عمر. طبيعة الحركة الشعوبية، مجلة آفاق عربية، العدد ٦، بغداد: ١٩٧٧م، ص٢٨ (سيشار إليه فيما بعد: فوزي، طبيعة الحركة الشعوبية).

٢- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢١

٣ - المصدر نفسه، ص ٣١

٤ - المصدر نفسه، ص٢١

٥ - الغثارة، الحمق والجهل. العرب، جـ ٥، ص ٣٣

٦ - شدة التعب والإعياء. لسان العرب، جـ ٥، ص ٢٢٥.

٧ - لغة المدائن، والغالب عليها من لغة أهل خراسان. ابن النديم، الفهرست، ص٢٥.

٨ - من اللغات الفارسية، اسمها يقع على خمسة بلدان وهي أصفهان والري وهمدان نهاوند وأذربيجان، ابن النديم، الفهرست، جـ ١، ص ٣٤.

الأهواز، فأما نغمة الهرابذة[١]، ولغة الموابذة[٢]، فلصاحب تفسير الزمزمة[٣]"[٤]. وكثيرا ما نجد الجاحظ ينقد الشعوبية في مواضع مختلفة من مؤلفاته خاصة في استعمالهم لزّمزمه في كلامهم[٥].

تحدث الجاحظ في موضوع الخطابة عن أساليب الجاهليين في الكلام في أمورهم الجليلة مثل المنافرة والمفاخرة، وعقد المعاقدة والمعاهدة وأمثال ذلك فيقول :"**وكذلك الأسجاع عند المنافرة**[٦] **والمفاخرة، واستعمال المنثور في خطب الحمالة**[٧]**، وفي مقامات الصلح وسل السخيمة**[٨]**، والقول عند المعاقدة والمعاهدة، وترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف، ولا التماس قافية، ولا تكلف لوزن**" [٩]. ثم يعرج الجاحظ عن أخذ العرب للمخصرة[١٠] عند مناقلة الكلام فيقول: "**وبمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى، والمنثور الذي لم يُقفَ، وبالأرجاز عند المنح**[١١]**، وعند مُجاثاة**[١٢] **الخصم، وساعة المشاولة**[١٣]**، وفي نفس المجادلة والمحاورة**"[١٤]. إذ أن الشعوبية حاولت أن تظهر فصاحة الخطباء بمظهر البساطة البدوية الذي لا صنعة فيه ولا بديع.

---

١ - جمع هربذ، الجزء الأول بمعنى التعليم، والجزء الثاني لاحقة تفيد معنى الاتصاف والملكية. وهم حكام المجوس. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٤٠

٢ - لغة سادتهم من الهرابذة، المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ١١٩.

٣ - صوت خفي لا يكاد يفهم. وأصل الزمزمة صوت المجوسي. لسان العرب، جـ ١٢، ص ٢٧٤.

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٠ .

٥ - المصدر نفسه، جـ ١، ص ٥١

٦ - المنافرة: المحاكمة في الحسب، لسان العرب، جـ ٥، ص ٢٢٦.

٧ - الدية والغرامة التي يحملها قوم عن قوم. وكانوا يسمون السيد يفعل ذلك الحمال. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦هـ/٨٨٩م). أدب الكاتب، مراجعة درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٩م، ص٣١٩ (سيشار إليه فيما بعد: ابن قتيبة، أدب الكاتب).

٨ - الحقد والضغينة والموجدة في النفس. لسان العرب، جـ ٩، ص ٢٩٦

٩ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦

١٠ - المخصرة: العصا. يأخذها الرجل بيده ليتوكأ عليه مثل العصا ونحوها. لسان العرب، جـ ٤، ص ٢٤٢

١١ - الناقة يعيرها صاحبها لمن يحلبها وينتفع بها ثم يعيدها، وأيضاً العطية والسقي من البئر بالدلاء. لسان العرب، جـ ٣، ص ٤٧٢.

١٢ - أن يجثو الخصمان على الركب أمام بعضهما ثم يأخذان في صنوف الجدل. لسان الغرب، جـ١٤، ص١٣٢

١٣ - تناول القوم بعضهم بعضا بالرماح عند القتال. لسان العرب، جـ ١١، ص٣٧٧.

١٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٥

لقد تناول الجاحظ ما أخذته الشعوبية على العرب على نفس السياق والكلام ولكن هنا يضيف بعض المأخذ الأخرى مثل القناة[1] والقضيب، والاتكاء والاعتماد على القوس، والخد[2] في الأرض[3]، فيقول: "**والاتكاء والاعتماد على القوس، والخد من الأرض، والإشارة بالقضيب**"[4]، وذكر أن من المستحسن في الخطيب أن يكون جهوري الصوت، قليل التلفت، نظيف البزة[5]، وأن يخطب قائمًا على نشر من الأرض[6]، أو على راحلته، وأن يحتجز عمامته، ويكمل هذه الخصال شرف الأصل وصدق اللهجة[7].

احتجت الشعوبية بقولها إنه لا يوجد بين العصا والخطبة سبب، وأن العصا لم توجد للخطابة بل للقتال أو الهش على المواشي، وأنها لا تنفع الخطيب في شيء، وهي تلهي السامع. والعرب قوم رعاة اعتادوا على حمل العصا في رعي مواشيهم فنقلوا تلك العادة إلى خطابتهم "**قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية: القضيب للإيقاع، والقناة للبقار، والعصا للقتال، والقوس للرمي. وليس بين الكلام وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نسب، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر....**"[8]. حيث يقوم طعن الشعوبية على كسر العلاقة بين الخطاب اللغوي للعصا الذي يحيل إلى البداوة ويقترن بنمط عيش عربي، حيث زج بالعرب في منافي البداوة بنمط إنتاجها الرعوي الذي يعيش فيه الإنسان على الكفاف وليس هذا المطعن إلا مدخلا لأصحاب الشعوبية في تجريد العرب من صفوة التفوق في الخطابة .

كان رد الجاحظ على الشعوبية قد استغرق عدة صفحات، بسبب أن موضوع العصا تناول بعداً أكبر من العرب تمثل في الأنبياء والرسل، ولذلك فإن الجاحظ فصل فيها كثيراً خاصة في كتاب البيان[9]، حيث يقرعهم في الفنون التي تصرف فيها العصا، وذكر العصا من أبواب المنافع والمرافق، وفي كم وجه صرفته الشعراء وضرب به المثل فيقول: "**ونحن لو**

١ ـ القناة من الرماح ما كان أجوف كالقصبة. لسان العرب، جـ ١٥، ص ٢٠٤

٢ ـ الطريق من الرمل والسحاب. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٤٣

٣ ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٠.

٤ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦

٥ ـ الهيئة. لسان العرب، جـ ٥، ص ٣١٢.

٦ ـ ما خرج من نباتها، وقيل الكلأ إذا يبس ثم أصابه مطر في آخر الصيف فاخضر. لسان العرب، جـ ٥، ص٢٠٧.

٧ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٦٤

٨ـ المصدر نفسه، ص ٩

٩ ـ انظر: المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٩٠ وما يليها وكذلك الصفحات الأولى من الجزء الثالث.

تركنا الاحتجاج لمخاصر البلغاء، وعصي الخطباء، لم نجد بدا من الاحتجاج لجلة المرسلين، وكبار النبيين، لأن الشعوبية قد طعنت في جملة هذا المذهب على قضيب النبي صلى الله عليه وسلم وعنزته، وعلى عصاه ومخصرته، وعلى عصا موسى، لأن موسى صلى الله عليه وسلم قد كان اتخذها من قبل أن يعلم ما عند الله فيها، وإلام يكون صيور أمرها. الا ترى أنه لما قال الله عز وجل: وما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى، قال: قال هِيَ عصايَ أتوكؤا عليها وأهُش بِها على غنمِي ولِيَ فِيها مآرِبُ أخرى. وبعد ذلك قال: قال ألْقِها يا مُوسى. فألقاها فإذا هِيَ حيةٌ تسْعى"[1]

ويعلل الجاحظ كل ذلك إذ لا يستطيع أن يدعي الإحاطة بما فيها من مآرب موسى إلا بالتقريب وذكر ما خطر على البال، وقد كانت العصا لا تفارق يد سليمان بن داوُد عليه السلام في مقاماته وصلواته[2]، ولا في موته ولا في أيام حياته، حتى جعل الله تسليط الأرضة عليها وسليمان ميت وهو معتمد عليها، من الآيات عند من كان لا يعلم أن الجن لم تكن تعلم إلا ما تعلم الإنس[3]. "وإنما بدأنا بذكر سليمان صلى الله عليه وسلم لأنه من أبناء العجم، والشعوبية إليهم أميل، وعلى فضائلهم أحرص، ولما أعطاهم الله أكثر وصفا وذكرا"[4].

يذكر الجاحظ الدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدن شريف، ومن المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذ سليمان بن داوُد عليه السلام العصا لخطبته وموعظته، ولمقاماته، وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة[5].

وقد جمع الله لموسى بن عمران عليه السلام في عصاه من البراهين العظام، والعلامات الجسام، ما عسى أن يفي ذلك بعلامات عدة من المرسلين وجماعة من النبيين[6]، ويستشهد الجاحظ بالقرآن الكريم عند حديثه عن النبي موسى عليه السلام: " إِنْ هذانِ لساحِرانِ يُرِيدانِ أنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما... ولا يُفْلِحُ الساحِرُ حيْثُ أتى"[7]

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص٦٢

٢ - المصدر نفسه، ص٦٢

٣ - المصدر نفسه، ص٦٢

٤ - المصدر نفسه، ص٢٢

٥ - المصدر نفسه، ص ٢٢

٦ - المصدر نفسه، ص ٢٣

٧ - سورة طه، الآية ٦٣

فلذلك قال الحسن بن هاني[١] في شأن الخصيب[٢] وأهل مصر حين اضطربوا عليه:

**فإن تك من فرعون فيكم بقية ... فإن عصا موسى بكف خصيب**[٣]

ألم تر أن السحرة لم يتكلفوا تغليط الناس والتمويه عليهم إلا بالعصي، ولا عارضهم موسى إلا بعصاه[٤] **"مع الذي عابوا من الإشارة بالعصي، والاتكاء على أطراف القسي، وخد وجه الأرض بها، واعتمادها عليها إذا اسحنفرت[٥] في كلامها، وافتنت[٦] يوم الحفل في مذاهبها، ولزومهم العمائم في أيام الجموع"**[٧].

وكان الاعتزاز بالإرث والتراث الفارسي مظهراً من مظاهر الحركة الشعوبية، والتي التفت إليها الجاحظ، وأشار إلى عظم خطرها، فقد أعطى صورة حية لموقف الكتاب من اعتزاز بآثار الفرس، ومن ترويج لها، ومن ازورار عن الثقافة العربية ومن تجريح الدراسات الإسلامية[٨] من حيث إنهم يتشدقون بحكم بزرجمهر[٩] وبسياسات أنوشروان[١٠] وبعبقرية الفرس،

---

١ - أبو نواس الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء(١٤٦ - ١٩٨ هـ / ٧٦٣ - ٨١٤ م) شاعر العراق ولد بالأهواز، ونشأ بالبصرة، وسمع من حماد بن سلمة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها الخصيب، وعاد إلى بغداد فأقام إلى أن توفي فيها. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٩٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٩، ص ٢٧٩

٢ - الخصيب بن عبد الحميد أبو نصر، صاحب ديوان الخراج بمصر. قصده أبو فراس من بغداد وامتدحه بقصيدته الرائية المشهورة، ولما قلد هارون الرشيد الخصيب خراج مصر وضياعها، توجه إلى مصر. ولما استقر بها كتب إلى أبي نواس يستزيره، وكان به خاصاً. فخرج إليه. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٦١، ص١٨٧. جـ ٣، ص١٨٥. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٣٦٥.

٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢٢،

٤ - المصدر نفسه، ص ٢١

٥ - مضى مسرعا. واسحنفر في خطبته إذا مضى واتسع في كلامه. لسان العرب، جـ٤، ص ٣٥٢.

٦ - من أفتنت والفتنة: الجنون. والفتنة: الفضيحة. وقوله عز وجل: ومن يرد الله فتنته ؛ قيل: معناه فضيحته، وقيل: كفره. لسان العرب، جـ ١٣، ص٣١٩.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٥

٨ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ ٢، ص ١٩١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٣.

٩ - بزرجمهر بن البختكان كان وزيرا لأنوشروان .كان رجلا حكيماً عالما وقد ذكر اسمه في بعض الأعمال الهامة وعلى الأخص في الشاهنامة. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت: ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م ). عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٩م، مجـ ٢، ص ١٥، ١٨٤ (سيشار إليه فيما بعد: ابن قتيبة، عيون الأخبار).

١٠ - أنو شروان بن قباذ بن يزدجرد بن بهرام جور. اعتلى العرش بعد أبيه قباذ الأول بنى العديد من الجسور والسدود وخلال عهده ازدهرت الفنون و العلوم في بلاد فارس، وكانت الإمبراطورية الساسانية في قمة مجدها وهو أحد الأباطرة الأكثر شعبية في الثقافة الفارسية. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١، ص ٩٢.

فيبين أن الناشئ منهم متى "وطأ مقعد الرئاسة وصارت الدوامة أمامه، وروى لبزرجمهر أمثاله ولأردشير[1] عهده، ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع أدبه، وصير كتاب مزدك[2] معدن علمه، ودفتر كليلة ودمنة[3] كنز حكمته، أنه الفارق الأكبر في التدبير"[4] ثم يكون " أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه، والقضاء عليه بتناقضه، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الأخبار( أي التاريخ العربي ) وتهجين من نقل الآثار"[5]. حيث يرى الجاحظ الشعوبية أصلا يهدد العقيدة الإسلامية في عصره، وتهديد العقيدة يقضي على الدين من الأساس، حيث يرى الشعوبية المنشأ الأول للريبة الفكرية والعقائدية، هذه الريبة تنتقل رويداً في كل ما يخص العرب من آثار وأشعار وحكم وخطابة بمعنى كل ثقافة العرب.

إن طعن الشعوبية للعرب في ثقافتهم ينطلق من ذكر مؤلفات الفرس واليونان ومقارنة ذلك بما لدى العرب، حيث يزعمون أن للفرس كتبا ورسائل محبرة، ولليونان كتبا في المنطق والحكمة، وللهنود كتبا في الحكمة والأسرار وليس للعرب مثل تلك الرسائل والكتب[6] " قالوا: ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة، ويعرف الغريب، ويتبحر في اللغة، فليقرأ كتاب كاروند، وهذه يونان ورسائلها وخطبها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة...."[7]. فيرد الجاحظ صحيح أن للهند كتبا مخلدة ولكنها لا تضاف إلى رجل معروف، وأن لليونان فلسفة وصناعة منطق ولكن صاحب المنطق كان بكيء اللسان[8]، وأن للفرس خطباء ولكن كل كلام

١ - أردشير بن بابك بن ساسان حاكم إصطخر ووالي فارس. أسقط الإمبراطورية البارثية وأصبح أول الملوك الساسانيين ولد في إيران في قرية طيروده من قرى مدينة اصطخر. الدينوري، الأخبار الطوال، ص٤٢

٢ - يقول الجاحظ في ذلك عن البرامكة: وإن تليت عندهم آية ... أتوا بالأحاديث عن مزدك. البيان والتبيين، جـ٣، ص ٢٢٨. مزدك من أهل الفساد، ومعروفاً عنه سوء التدبير. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٣، ص١٦٧.

٣ - كتبها الفيلسوف بيدبا، عبارة عن مجموعة من القصص تتجنب الأسلوب المباشر والصريح، وتحاول أن تركز على المعاني الضمنية، وقد تُرجم هذا العمل من اللغة السنسكريتية إلى اللغة الفهلوية(الفارسية القديمة)، الأمر الذي أتاح لعبد الله بن المقفع أن يترجمها من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية في منتصف القرن الثامن الميلادي، وسماه كليلة ودمنة، بعد أن كان يسمى "الفصول الخمسة" قبل ترجمته، وقد أدرج فيه بابًا جديدًا تحت عنوان "الفحص عن أمر دمنة"، كما ألحق به أربعة فصول لم ترد في النص الفارسي. ابن النديم، الفهرست، ص١٥٠، ١٥٢ـ ١٥٨. البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ٧، ص ٤٤، ص٤٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ٩، ص١٩٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٠، ص١٠٢، ص٣٢١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٢٨.

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص١٤

٥ - المصدر نفسه، ص١٤

٦ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٣.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص٩

٨ - يقصد بصاحب المنطق أرسطو، فيرى أنه قليل الكلام، فكيف يكون لليونان رسائل وخطب وهم قليلو الكلام، كما أن أرسطو كما يرى الجاحظ صاحب منطق أي لا يزيد منطقه عن عقله، فكانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الكلام. الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١١٢. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٤.

للفرس إنما هو ثمرة التفكير والدراسة وكدّ الخاطر. أما العرب فكلامهم وليد البديهة والإلهام، لا يعانون فيه جهدا ولا يجيلون فكرا[1].

كما يضيف الجاحظ أن هذه الكتب والرسائل المنسوبة إلى الفرس واليونان ليست صحيحة، وهي منحولة ولدها أمثال ابن المقفع وسهل بن هارون[2] وعبد الحميد وغيلان ونسبوها إلى قومهم الفرس[3]. **" ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذ كان مثل ابن المقفع[4] وسهل بن هارون[5]، وأبي عبيد الله[6]، وعبد الحميد[7] وغيلان[8]، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير"**[9].

بل إن بعض هذه المؤلفات الموضوعة نسبت إلى بعض الأعلام لتكتسب قيمة خاصة، الم تكن نسبة الكتاب إلى بعض الأعلام المشهورين فناً جديداً من فنون الشعوبية[10].

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٠

٢ - إن العلاقة بين ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ تدعونا إلى التحفظ في حكمنا الخاص، بلا، ص٣١٢. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٢٧-٢٨.

٣ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥١-٥٢.

٤ - سبقت ترجمته

٥ - سبقت ترجمته

٦ - أبو عبد الله يعقوب بن داود بن عمر بن طهمان(١٨٧ هـ / ٨٠٣ م) كان وزير المهدي، يكتب بين يديه، وعليه تخرج رسائل تقع في نحو ألف ورقة. كان والده كاتبا للأمير نصر بن سيار. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٧، ص ١٩، ٢٠، ٢٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٠، ص ٢١.

٧ - سبقت ترجمته

٨ - سبقت ترجمته

٩ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢١

١٠ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ١٠. خليفة، تيار الشعوبية، ص ٥٦.

يشير الجاحظ إلى موقف الشعوبية في تجريح أعلام الثقافة العربية الإسلامية[1]، فيقول: "فإن استرجح أحد عنده أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فتل عند ذكرهم شدقه، ولوى عند محاسنهم كشحه[2]. وإن ذكر عنده شريح[3] جرحه، وإن نعت له الحسن استثقله، وإن وصف له الشعبي[4] استحمقه، وإن قيل له ابن جبير[5] استجهله، وإن قدم عنده النخعي[6] استصغره. ثم يقطع ذلك من مجلسه سياسة أردشير بابكان[7]، وتدبير أنوشروان، واستقامة البلاد لآل ساسان"[8]، هذا الموقف يشعرك بتصغير شأن العرب وثقافتهم حتى في الإسلام، وبأنه لم يسلم من تَهجّم شعوبيي الكتّاب حتى القرآن والحديث. ويبدو أن الكتّاب على تضلعهم بالعربية وأدبها كانوا لا يعنون بأصول الثقافة العربية الإسلامية[9]. بل إن الجاحظ يتهمهم في تكوين ثقافتهم بقوله: " أنه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره، ولا علمه تفسيره، ولا التفقه في الدين شعاره، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده"[10]. ونلاحظ من خلال ذلك أن الكتّاب بذلوا مجهودا كبيرا لطبع الإدارة العباسية وثقافة أصحابها بطابع أعجمي، كل ذلك في ظل دولة عربية إسلامية[11].

١ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص ٦٠٨. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٤.

٢ - الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، وهو من لدن السرة إلى المتن. لسان العرب، جـ ٢، ص٥٧٢.

٣ - شريح بن هانئ بن يزيد الحارثي(ت: ٧٨ هـ / ٦٩٧ م) من مقدمي أصحاب علي ومن أمراء جيشه يوم الجمل. ولما كان يوم التحكيم بعث علي أبا موسى، ومعه أربعمائة رجل، عليهم شريح بن هانئ. قتل غازيا بسجستان. الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٩٧، ٢٠١. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص١١١-١١٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٢٠١. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص٥٥١.

٤ - عامر بن شراحيل الشعبي(١٩ - ١٠٣ هـ/ ٦٤٠ - ٧٢١ م) من التابعين، ولد ونشأ ومات بالكوفة. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم. استقضاه عمر بن عبد العزيز. الحموي، معجم الأدباء، جـ٤، ص ٣٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ١٢.

٥ - سعيد بن جبير الاسدي(٤٥ - ٩٥ هـ/ ٦٦٥ ــ ٧١٤) من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الارض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص ٣٩٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٧١.

٦ - إبراهيم بن الأشتر النخعي، من أكابر التابعين صلاحا وصدق رواية وحفظا للحديث، مات متخفيا من الحجاج سنة ٩٦ هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص٢٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٤، ص٥٢٣.

٧ - في الأصل: أردشير بن بابكان، أول السلسلة الساسانية. الطبري، تاريخ، جـ ٢، ص ٧٠٤.

٨ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص٦٠٨

٩ - حجاب، محمد نبيه. مظاهر الشعوبية في الأدب العربي، مطبعة الرسالة، القاهرة: ١٩٦١م، ص٨٧ (سيشار إليه فيما بعد: حجاب، مظاهر الشعوبية). الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٤.

١٠ - الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب، جـ٢، ص٦٠٩

١١ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٥. حجاب، مظاهر الشعوبية، ص٧٦.

لكن الشعوبية غفلت أنه بازدهار الثقافة العربية أصبحت الرابطة العربية اللغوية الثقافية رابطة حية. فالجاحظ يؤكد على عروبة وثقافة العرب منذ عهد إسماعيل عليه السلام[1]، بقوله: " وقد جعل إسماعيل وهو ابن أعجميين عربياً، لأن الله تعالى لما فتق لهاته بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب، وفطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين، وسلخ طباعه من طبائع العجم، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء، وركبه اختراعاً على ذلك التركيب، وسواه تلك التسوية[2]، وصاغه تلك الصيغة، ثم حماه من طبائعهم، ومنعه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأسناها، وأشرفها وأعلاها"[3]. وهذا توضيح للأسس الثقافية للعروبة، ولمفهوم الروابط التي تجعل من العرب أمة. والشعوبية خطر يهدد الإسلام بالارتياب فيه والجدال في تعاليمه وبغض أهله، ولغتهم والتدرج بالمرتاب حتى ينسلخ عن الإسلام فتتلاشى العقيدة ويتضاءل العدد وتخرس اللغة ويتلاشى مركز الثقل الجغرافي ببعده التاريخي والثقافي[4].

ومن مظاهر حقد الحركة الشعوبية على العرب، محاولة الطعن بصفاتهم وخصالهم، وخاصة صفتي الشجاعة والكرم، فقد رمت الشعوبية العرب بجهل فنون الحرب والأسلحة. فهم لا يتقنون تنظيم الجيوش ولا يعرفون الكمين[5]، فيرد عليهم: " وأما قولهم: ولا يعرفون الكمين فقد قال أبو قيس بن الأسلت[6]:

وأحرزنا المغانم واستبحنا ... حمى الأعداء والله المعين

بغير خلابة[7] وبغير مكر ... مجاهرة ولم يخبأ كمين"[8]

كما رمتهم الشعوبية بأنهم لا علم لهم بالميمنة والميسرة والقلب والجناح، والقتال في الليل " ليس فيما ذكرتم من هذه الأشعار دليل على أن العرب لا تقاتل بالليل. وقد يقاتل بالليل والنهار من

---

١ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٨.

٢ - يعد الجاحظ من أوائل من أشار إلى مصطلح التسوية الذي بدأ في القرن الأول الهجري وحتى القرن الثاني الهجري، ويهدف إلى تسوية العرب بالأمم الأخرى، حتى إذا رأت أنها لم تحقق هدفها بدأت الشعوبية على طبيعتها الحقيقية التي تستهدف العرب والمسلمين. فوزي، الخلافة العباسية، جـ ١، ص ١٦٦.

٣ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٩١

٤ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٧٨-٧٩.

٥ - الكمين في الحرب الذين يكمنون. وأمر فيه كمين أي فيه دغل لا يفطن له، لسان العرب، جـ١٣، ص٣٥٩.

٦ - صيفي بن جشم بن وائل من شعراء الأوس المشهورين كان سيد قومه وأسندت إليه الأوس حربها يوم بعاث الذي انتصر فيها الأوس على الخزرج وهو والد الصحابي عقبة بن أبي قيس الذي استشهد يوم القادسية. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١، ص ١٤١. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١، ص ٢٩٧. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٧، ص ٤٤٥.

٧ - الخلابة: الخديعة، ويقال خلبت الرجل: إذا خدعته. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٦٣.

٨ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٦.

تحول دون ماله المدن وهول الليل. وربما تحاجز الفريقان وإن كل واحد منهم يرى البيات"[1] ويورد الجاحظ في ذلك شعراً:

**"وليلة تبع وخميس كعب ... أتونا، بعد ما نمنا، دبيبا**

**فلم نهدد لباسهم ولكن ... ركبنا حد كوكبهم ركوبا**

**بضرب يفلق الهامات منه ... وطعن يفصل الحلق الصليبا"[2]**

ولا يحسنون استعمال الأسلحة التي يحسنها الفرس مثل الدراجة[3] والمنجنيق والدبابة ثم إن رماح العرب رديئة النوع لا تضارع رماح الفرس الجيدة. رد الجاحظ على مطاعنهم فقال إن الرماح العربية أجود من الرماح الفارسية وهي متنوعة منها المربوع[4] والمخموس[5] **"وأما ما ذكروا من شأن رماح العرب فليس الأمر في ذلك على ما يتوهمون. للرماح طبقات: فمنها المربوع، ومنها المخموس، ومنها الخطل وهو الذي يضطرب في يد صاحبه لإفراط طوله. فإذا أراد الرجل أن يخبر عن شدة أمر صاحبه ذكره، كما ذكر متمم بن نويرة أخاه[6]"[7].**

ولهذه العلة قتل خالد بن سعيد بن العاص[8]، حين غشيه العدو وأراد الركوب ولم يجد من يحمله. ولذلك قال عمر[9] حين رأى المهاجرين والأنصار قد أخصبوا بعد حركة الفتوح

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٤

٢ - المصدر نفسه، ص ١٤.

٣ - تشبه الدبابة يختبىء تحتها الجنود أثناء الحصار، لسان العرب، جـ ٢، ص ٢٦٦.

٤ - المربوع: الذي ليس بطويل ولا قصير، لسان العرب، جـ ٨، ص ١٠٧.

٥ - رمح مخموس الذي طوله خمس أذرع. لسان العرب، جـ ٦، ص ٦٧.

٦ - اخاه مالك بن نويره الذي أرتد عن الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجاء أخوه تميم فكان يرثيه. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٦.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص١٧

٨ - خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف،. كان يلزم النبي صلى الله عليه وسلم ويصلي في نواحي مكة خالياً. فبلغ أباه فضيق عليه بالضرب والحبس والجوع ثم انفلت منه مهاجراً إلى الحبشة في الهجرة الثانية، فأقام بها حتى قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر مع أصحاب جعفر فأسهم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر. وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك المشاهد. وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عاملاً على صدقات اليمن، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ولايته. انظر: ابن خياط، تاريخ، ص٩٧. الطبري، تاريخ، جـ٢، ص١٣٢، ١٨٠، ١٩٩، ٢١٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٤، ص ٣٤٤، ٣٤٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١، ص٤٤١، جـ ٢، ص ٢٢٠.

٩ - كان عمر بن الخطاب يحرص على أن يلتزم العرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القائمة على التقشف والخشونة والزهد خشية أن تجرفهم حياة المدنية في تيارها، إذ بعد فتح الشام والعراق تمرد العرب على بداوتهم بتأثير البيئات الحضارية الجديدة ورغبتهم في مجاراة أهل البلاد المفتوحة. سالم، عبد العزيز. تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت: ١٩٧١م، ص ٦٨٨ (سيشار إليه فيما بعد: سالم، الدولة العربية).

بمقاربة عيش العجم: "**تمعددوا[1] واخشوشبوا، واقطعوا الركب، وانزوا على الخيل نزوا. وقال: احفوا وانتعلوا، إنكم لا تدرون متى تكون الجفلة[2]**"[3]. وهذه كناية عن الشدة التي تربى عليها العرب. والتي تساعدهم وقت الحروب، كما تعمل على الشد من رباطة جأشهم وبأسهم.

وكانت العرب لا تدع اتخاذ الركاب للرحل فكيف تدع الركاب للسرج، ولكنهم كانوا وإن اتخذوا الركب فإنهم كانوا لا يستعملونها إلا عندما تكون لا بد منها، كراهة أن يتكلوا على بعض ما يورثهم الاسترخاء والتفنخ[4]، ويضاهوا أصحاب الترفة والنعمة[5]. "**كان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسرى. ثم يجمع جراميزه ويثب، فكأنما خلق على ظهر فرسه. وفعل مثل ذلك الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهو يومئذ ولي عهد هشام، ثم أقبل على مسلمة بن هشام فقال له: أبوك يحسن مثل هذا؟ فقال مسلمة: لأبي مائة عبد يحسنون مثل هذا. فقال الناس: لم ينصفه في الجواب**"[6].

كما حاولت الشعوبية أن تنفي صفة الأمة عن العرب فإطلاق الفرس على أنفسهم لفظ الشعوبية يشعر بأنهم قصروا مفهوم الشعوبية على أنفسهم[7]، وأما العرب في زعمهم فقبائل متفرقة متنازعة دائمة الترحال والتنقل[8]. ورد الجاحظ عليهم بأن حياة الترحال فيها الفضيلة والحرية، وأن الترحال دليل على نبل الهمة وشدة الأنفة والحمية والهرب من الذل، فسكن البادية تحتاج جهد وقوة، وإلى صبر لتحمل شظف العيش والمشقة في البادية[9] "**وقد يصيب القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يسمع به في أمة من الأمم، ولا في ناحية من النواحي. وأن أحدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة، وحتى يعتصم بشدة معاقد الإزار، وينزع عمامته من رأسه فيشد بها بطنه. وإنما عمامته تاجه**"[10].

---

١ ـ تمعددوا، واخشوشبوا أي اصبروا على جهد العيش، ليكون أجلد لكم. وفي حديث عمر، رضي الله عنه: اخشوشبوا، وتمعددوا. تمعددوا أي تشبهوا بعيش معد، وكانوا أهل قشف وغلظ في المعاش؛ يقول: فكونوا مثلهم ودعوا التنعم وزي العجم. لسان العرب، جـ ١، ص ٣٥٤. جـ ٣، ص ٢٨٧.

٢ ـ المضي والهرب. لسان العرب، جـ ١١، ص ١١٣.

٣ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٧

٤ ـ الفنيخ: الرخو الضعيف. لسان العرب، جـ ٣، ص ١٦

٥ ـ بروكلمان، تاريخ الشعوب، جـ٣، ص ١٤٣

٦ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ١٥

٧ ـ النعمي، حسن أحمد. موقف الجاحظ من الشعوبية، مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية، العدد ٤، الرياض: ٢٠٠٨م، ص ٣٣٣ (سيشار إليه فيما بعد: النعمي، موقف الجاحظ).

٨ ـ الجاحظ، البخلاء، ص ٢٨٨

٩ ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٦٨.

١٠ ـ الجاحظ، البخلاء، ص ٢٨٢

كما حاولت الشعوبية أن تنفي صفة الكرم والمروءة عن العرب، وتشويه ما فيه من بذل وتضحية وبالغوا في التشنيع به. وذهبوا إلى أبعد من ذلك وكتبوا رسائل في البخل[1].

ولما وجهت الشعوبية هجومها على الكرم الذي اشتهر به العرب، تناول الأدباء العرب الكرم بالمدح واستطاعوا من خلال هذا المدح اظهار صفة الكرم بمظهر رائع[2]، فرددوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم **"السخي قريب من الله، قريب من الناس، بعيد عن النار، والبخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد عن الجنة قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عباد بخيل"**[3] ومن كلام الجاحظ في الرد على الشعوبية ما جاء في كتاب البخلاء "**وقال ثمامة[4] لم أر الديك في بلدة قط إلا وهو لاقط، يأخذ الحبة بمنقاره، ثم يلفظها قدام الدجاجة، إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب. قال: فعلمت إن بخلهم شيء في طبع البلاد، وفي جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيوانهم**"[5]. إن مطالعة كتاب البخلاء تنقلك من السخرية إلى الجد، ومن إنكار البخل إلى تحليل شبه فلسفي يبين لك أن البخل طبع متأصل في الشعوبيين وبذلك يقدم دفاعاً قوياً عن الكرم[6].

وعلى الرغم من الدور الذي قام به في الوقوف في وجه الشعوبية ومعاصرته فريقاً من مشاهير الشعوبيين فإنه لم يطلق على أي منهم لفظ الشعوبية، فهو في حديثه عن أبي عبيدة معمر بن المثنى مع ما عرف من معاداة للعرب اكتفى بالقول فيه "**... وهذا التأويل أخرجه من أبي عبيدة سوء الرأي في القوم**"[7] ويبدو أن الجاحظ ركز اهتمامه على الشعوبية كحركة معادية للعرب للعرب والإسلام ورد عليها دون الاهتمام بأشخاصها[8].

ويختم الجاحظ هذا الجدل بالإشارة إلى الدافع الذي حمل هؤلاء العجم على بغض العرب والتنقص من شأنهم، إنه دافع نفسي يرجع إلى الحسد الجاثم على قلوبهم كما يرجع إلى كره الإسلام الذي جاء به العرب. " **اعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة. وقد شفى الصدور منهم**

١ ـ الجاحظ، البخلاء، ص٢٨٨. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٨٤-٨٥.

٢ ـ الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٨٤.

٣ ـ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص ١٤٢.

٤ ـ تم تعريفه عند الحديث عن شيوخ المعتزلة.

٥ ـ الجاحظ، البخلاء، ص ٣٨

٦ ـ السامرائي، الشعوبية، ص ١٨٤. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٨٥.

٧ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٦٦.

٨ ـ السامرائي، الشعوبية، ص ٩٤.

طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطرمة. ولو عرفوا أخلاق أهل كل ملة، وزي أهل كل لغة وعللهم، على اختلاف شاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيئاتهم، وما علة كل شيء من ذلك، ولم اجتلبوه ولم تكلفوه، لأراحوا أنفسهم، ولخفت مئونتهم على من خالطهم"[1]. والجاحظ، وإن انتصر للعرب ضد الشعوبية، لم يرتكب الخطأ الذي ارتكبته، فهو ذهب إلى أن الأمم ينبغي أن تكف عن البغضاء والتعصب لمزاياها، وأن تتعاون وتتآلف لأن لكل أمة مزايا ونقائص[2].

## ثانياً: الزندقة

من خلال استعراض كتابات الجاحظ في مجال الحركة الشعوبية نجده يقرنها بالزندقة[3]، والتي تبدأ من التهجم على العرب إلى اللغة العربية والإسلام[4]، إذ أن الشعوبية والزندقة مترابطتان ويصعب الفصل بينهما[5]. وقد أشار الجاحظ إلى الصلة الوثيقة بينهما[6] بقوله: " إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أولُ ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة"[7].

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٢١

٢ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٨٤. للجاحظ كتاب مفقود في الرد على الشعوبية أطلق عليه اسم كتاب الشعوبية، البخلاء، ص ٣٣١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٤٧.

٣ - الزنديق: الملحد، والزنديق من الثنوية، وزندقته أنه لا يؤمن بوحدانية الخالق وبالآخرة. لسان العرب، جـ١٠، ص١٤٧.

٤ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٩، ص ٥٨.

٥ - المرجع نفسه، ص ٢٩

٦ - المرجع نفسه، ص ٥٨، ص ٩٣.

٧ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ١٣١.

الزنديق هو الملحد الذي لا يؤمن بوحدانية الله ولا باليوم الآخر[1]. كما تعرف بأنها القول بأزلية العالم، وأطلق على الزرادشتية[2] والمانوية[3] وغيرهم من الثنوية[4] وتُوسع فيه فأُطلق على كل شاك أو ضال أو ملحد[5]. كانت هذه الفرقة منتشرة في بلاد فارس فهي تضم كل من ظل معتنقا تعاليم مزدك[6] وماني[7] التي تدعو إلى عبادة إلهين إله النور، وإله الظلمة[8]. ثم إنها وطمعاً في استقطاب الشباب إليها أباحت ما حرم الإسلام من حرمات، وتأثرت بعقائد الهند التي تقول بالتناسخ والحلول، وأخذت تحارب الإسلام من الداخل[9]، وكانت تسعى بذلك إلى تقويض الحكم العربي[10]، من خلال تقريب العناصر الفارسية من الخليفة ومشاركته في السلطة أو حتى التفرد والاستقلال بها. فقد كانت هذه العناصر تحلم بإعادة مجدها المفقود فشجعت حركات الزندقة والشعوبية[11]، وكانت تخفي أحلامها بمطاوعة الخلفاء فيما يشتهون وإشباع

---

١- الاسفراييني، التبصير، ص ١١٦. الغزالي، محمد بن محمد(ت: ٥٠٥هـ / ١١١١م). التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، بيروت: ١٩٩٣م، ص٣٢ (سيشار إليه فيما بعد: الغزالي، التفرقة بين الإسلام والزندقة).

٢ - الزرادشتية: ديانة وثنية تؤمن بأن للعالم إلهين، أحدهما إله الخير، والآخر إله الشر، نسبت الديانة إلى مؤسسها زرادشت، يدين بها ملوك آل ساسان، كانت تنتشر في بلاد فارس. الطبري، تاريخ، جـ ١، ص ٣١٧. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٥، ٣٦. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص٤١، ٤٢.

٣ - المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة عيسى عليه السلام. ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٠. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص ٤٩ - ٥٢.

٤ - يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان قالوا بتساويهما في القدم، واختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والحيز، والمكان والأجناس، والأبدان والأرواح. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ٢، ص ٤٩.

٥- لسان العرب، جـ ١٠، ص ١٤٧.

٦ - مزدك الذي ظهر في أيام قباذ والد أنوشروان، ودعا قباذ إلى مذهبه، فأجابه. وطلع أنوشروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله. قول المزدكية كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين، إلا أن مزدك كان يقول: إن النور يفعل بالقصد والاختيار. والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق. السمعاني، الأنساب، جـ ٥، ص ٢٧٣. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص ٥٤.

٧ - راجع المانوية التي سبق ذكرها.

٨ - الأصفهاني، الأغاني، جـ ٣، ص٧٣.

٩ - جبري، شفيق. عصر الجاحظ الزندقة، ط ١، دمشق: ١٩٣١م، ص٩ (سيشار إليه فيما بعد: جبري، عصر الجاحظ الزندقة).

١٠- الفياض، عبدالله. تاريخ البرامكة، مطبعة الرشيد، بغداد: ١٩٨٤م، ص ٥٦ (سيشار إليه فيما بعد: الفياض، تاريخ البرامكة).

١١- الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٤٨

شهواتهم وإظهار الوفاء لهم. وكان من هؤلاء أبو مسلم الخراساني ثم البرامكة[1]، ثم بني سهل[2] وبني طاهر[3].

كما سعت إلى خلع طاعة الخليفة وإعلان الثورة عليه، ومنها ثورة الروندية[4] والبابكية الخرمية[5]، بإفساد عقيدة المسلمين تحت شعار التشيع، فتسربت عقائد وديانات الفرس السابقة

---

١ البرامكة أسرة فارسية، بدأ اتصالها بالعباسيين في أوائل أيام ثورتهم، فكان يحيى أحد قادة الثورة العباسية. وبعد نجاحها ولاه المنصور ديوان الخراج. وعظمت منزلته إلى أن عهد الخليفة المهدي له ولزوجته بتربية ابنه الرشيد، فلما تولى الرشيد زادت مكانة يحيى وولديه الفضل وجعفر. انظر: الحموي، معجم الأدباء، جـ ٢، ص ١٢٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٣٧، ٣٣٨. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٢، ص ٢٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٩، ص ٦٤. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٣٧. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص ١٣٥-١٤٣.

٢ - هم من البرامكة الذين سبق تعريفهم، ومنهم: الفضل، والحسن. اتصل الفضل بن سهل بعد إسلامه بالمأمون فأحسن إليه، ولعب الفضل دورًا في الصراع بين الأمين والمأمون، وكانت له اليد الطولى في انتصار المأمون وانفراده بالخلافة؛ ولاه المأمون على المشرق سنة(١٩٦ هـ)، ولقبه بذى الرياستين. كما كافأ المأمون الحسن بن سهل بأن ولاه ديوان الخراج. واستغل الفضل ما منحه المأمون من سلطة فاستأثر بالسلطة وصارت بيده مقاليد الأمور، وخص أقاربه وأعوانه الفرس بأعظم مناصب الدولة دون العرب، وبلغ من تأثير الفضل بن سهل في المأمون أنه أغراه بتولية على بن عيسى الرضا العهد من بعده، وأراد تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين. وقد أحس المأمون بالخطر من ازدياد سلطة بنى سهل؛ فتحين الفرصة حتى تمكن من القضاء على الفضل بن سهل سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧م. الحموي، معجم الأدباء، جـ ١، ص ٧٢. جـ ٢، ص٦١٧. جـ ٣، ص ٦٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٤٦. جـ ٤، ص ٤١-٤٢. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ١٢، ص ٤٢. جـ ١٣، ص ٣٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ١٠، ص ٩٩. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٣، ص ١٣٩. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٣٧. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص ١٣٥-١٤٣.

٣ - الطاهرية إحدى الدول الإسلامية الصغيرة التي قامت في العصر العباسي الأول. تُنسب إلى مؤسسها طاهر بن الحسين أحد القواد في ظل الخلافة العباسية. دامت هذه الدولة نحو(٥٢) سنة حتى سقوطها على يد الصفارين. بدأ حكم الطاهريين سنة (٢٠٢هـ/ ٨١٧/) حين ولى المأمون العباسي قائده طاهر بن الحسين إمارة المشرق، واتخذ من نيسابور عاصمة لدولته، واستطاع أن يؤسس لنفسه إمارة شبه مستقلة عن الدولة العباسية؛ إذ منحه الخليفة استقلالا في إدارتها، على أن يؤدى ما عليها من الخراج. حموي، معجم الأدباء، جـ ٢، ص ٥٦٣، ٥٦٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥١٧-٥٢٠. الذهبي تاريخ الإسلام، جـ ١٣، ص ٤٩، ٥٢، ٥٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٠، ص ١٠٨. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ٢٦٧، ٢٦٨. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٤١.

٤ - الروندية تنسب إلى مدينة راوند قرب أصفهان ببلاد فارس. كانت بداية ظهورها في الدولة الأموية، عندما خرج رجل يقال له: الأبلق، وكان أبرص، وزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في على بن أبى طالب والأئمة من بعده واحدًا واحدًا وأنهم آلهة. ولما شاع أمرهم وما يرتكبونه من المحرمات، قام عليهم أسد بن عبد الله القسري والي بنى أمية على خراسان فقتلهم، ولكن ظل منهم قليل حتى ظهروا ثانية في خلافة أبى جعفر المنصور العباسي، وخرجوا جميعًا على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون: بأبي جعفر أنت أنت، يعنون أنت الله، فخرج إليهم بنفسه ورد عليهم ادعاءهم، وقاتلهم وحبس مائتي رجل من زعمائهم، ولكن الباقين اقتحموا السجن، وأخرجوهم منه، ثم ذهبوا إلى قصر أبى جعفر فخرج إليهم مترجلاً وكادوا يقتلونه لولا دفاع معن بن زائدة الشيباني الذى دفعهم عنه، وظل المنصور في جهادهم حتى قضى عليهم. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٢٣٦.الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٨٤. المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص٤٥٠. الذهبي تاريخ الإسلام، جـ ٩، ص ٥، ٧. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص١٤٧-١٥٠.

٥ - نسبت إلى بابك الخرمي، الذي أظهر الباطنية، فلما تولى الخلافة المعتصم قبض عليه وصلبه بسامراء سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٧م، الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٣، ص ٣٥٢. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص١٥٧.

للإسلام من خلال هؤلاء الشيعة، فكانت تغرر بالشبان بما كان "ماني" يدعو إليه من طلب اللذة بإباحة شرب الخمر ووطء المحرمات ومنهم الأخوات والبنات[1].

استفحلت الزندقة في العصر العباسي فكشف الجاحظ عن فريق من أهل الكتاب "**وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف بالإسناد من رواياتنا، والمتشابه من آي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا، ويسألون عنها عوامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين، والزنادقة الملاعين، وحتى مع ذلك ربما تبرأوا إلى علمائنا، وأهل الأقدار منا، ويشغبون على القوي، ويلبسون على الضعيف**"[2].

صور الجاحظ موقف الدولة العباسية من حركة الزندقة، ورواياته تتباين ما بين الهزل والجد والسخرية والتهكم والنقد والتقريع، لكن إذا أمعنت النظر فيها تجد حتى الهزلية تحتوي على مادة مهمة من ذلك مثلاً "**لأن العوام تقضي على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة** "[3] وهذه الرواية على الرغم من هزلها فإنها تدل على ما وصل إليه حال الناس من التشكيك في وصف الإنسان بالزندقة على أبسط الأمور. انظر للجاحظ وهو يريد أن ينتقص من قدر الترك فوصفهم بالزندقة ولكن بتحوير المعنى " **فلما دانوا بالزندقة ودين الزندقة في الكف والسلم أسوأ من دين النصارى نقصت تلك الشجاعة، وذهبت تلك الشهامة** "[4].

وتتباين التهم التي يأخذها الجاحظ على أهل الزندقة، ويعلل ذلك بقوله: " **فقد كانوا يصنعون الآثار، ويولدون الأخبار، ويبثونها في الأمصار، ويطعنون في القرآن، ويسألون عن متشابهه، وعن خاصه وعامه** "[5].

ويضيف الجاحظ " **فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظرفائنا، ومجانينا وأحداثنا شيء من كتب المنانية[6]، والديصانية[7]، والمرقونية[1]، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى،**

---

يرى الدوري أنه لا يمكن تصنيف ثورة بابك ضمن الحركة الشعوبية، فلا تندرج ضمن الحركات السرية التي تتظاهر بالإسلام وتعمل على هدم السلطان العربي أو على هدم الإسلام كما هو حالب باقي الحركات، الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ١١.

١ - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٣، ص ٢٥٢.

٢ - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٣، ص ٣٢٠.

٣- الجاحظ، الحيوان، جـ٢، ص ٣٠٣

٤- الجاحظ، رسالة الأوطان والبلدان، ص ١١٠

٥- الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٧٨

٦ - المنانية؛ والمنانية هي نفسها المانوية التي سبق ذكرها. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٥٦ وما يليها، المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ١٠٨، جـ ٢، ص ١١٢.

٧ - الديصانية: فرقة من المجوس، وهم أصحاب ديصان، الذي كان قبل ماني. والمذهبان متقاربان، ويختلفان في اختلاط النور والظلمة. ابن النديم، الفهرست، ص ٤٧٤، الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص ٨٨.

وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها، ومخلاة في أيدي ورثتها. فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها "[2] .

ويظهر أن الزندقة فشت بين المسلمين وخاصة في العراق فقد روى الأصمعي عن الخليل بن أحمد أنه قال: " أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية"[3]. لم يغفل المهدي والذي يعد أول من طارد الزنادقة[4] عن معاقبتهم فمنهم من يهرب من وجه السلطان، ومنهم من يقتل، ومنهم من يستر زندقته حتى ينجو من الشر[5]، كما خصص وظيفة لصاحب الزنادقة[6]. يقول الجاحظ: "والزنادقة لم تكن قط أمة، ولا كان لها ملك ومملكة، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق"[7] .

وجد الزنادقة في التظاهر بالمجون وسيلة لستر معتقداتهم وآرائهم وأسلوباً ناجحا للهجوم على الإسلام فقد اشتهر عدد من مشاهير الزنادقة بالمجون فكان " حماد عجرد[8] وحماد الرواية[9] وحماد الزبرقان[1] ويونس بن فروة[2] يتواصلون، وكأنهم نفس واحدة "[3] وكانت هذه المواصلة

---

١ - المرقيونية: أصحاب مرقيون وهم قبل الديصانية وهم طائفة من النصارى أقرب من المنانية والديصانية وزعمت المرقيونية أن الأصلين القديمين النور والظلمة وأن ها هنا كونا ثالثا مزجها وخالطها وقالت بتنزيه الله عز وجل عن الشرور وأن خلق جميع الأشياء كلها لا يخلو من ضرر وهو مجل في ذلك واختلفوا في الكون الثالث. ابن النديم، الفهرست، ص ٤١٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ ١،ص ١٠٩.

٢ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٣٢٠

٣ - الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد(ت: ٥١٣هـ / ١١١٩م). نزهة الألباب في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٣م، ص٣١ (سيشار إليه فيما بعد، الأنباري، طبقات الأدباء).

٤ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٢٣. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص١٥١.

٥ - اليعقوبي تاريخ اليعقوبي، ص٤١١. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٦٨، ٥٨٠، ٥٨٢. فوزي، الخلافة العباسية، جـ١، ص ١٥٨-١٥٩.

٦ - سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص١٥٣

٧ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٤٧٣

٨ - حماد بن عمر بن يونس بن كليب(ت: ١٦١ هـ / ٧٧٨ م) قدم بغداد في أيام المهدي. وكان حماد ماجنا ظريفا متهما في دينه، وسبب تسميته بعجرد أن أعرابيا مر به وهو غلام يلعب مع الصبيان في يوم شديد البرد وهو عريان، فقال له الأعرابي: تعجردت يا غلام، فسمي عجردا. كان حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان يتنادمون ويتناشدون الأشعار، وكانوا يرمون بالزندقة جميعا.

انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٦٦٣. ابن المعتز، عبد الله بن المعتز العباسي(ت: ٢٩٦هـ / ٩٠٨م). طبقات الشعراء، تقديم صلاح الدين الهواري، ط١، مكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٢م، ص ٦٧(سيشار إليه فيما بعد: ابن المعتز، الطبقات). الأصفهاني، الأغاني، جـ١٤، ص ٣٠٤. الدار قطني، علي بن عمر( ت: ٣٨٥هـ / ٩٩٥م). المؤتلف والمختلف، تحقيق موفق بن عبد الله، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٦م، ص١٥٧ (سيشار إليه فيما بعد: الدار قطني، المؤتلف والمختلف). الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ ٨، ص١٤٨. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٣، ص٢٤٣.

٩ - حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي(٩٥ - ١٥٥ هـ / ٧١٤ - ٧٧٢ م)، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، كان متهما بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب. ابن سعد، الطبقات، جـ ٨، ص٦٩. الأصفهاني، الأغاني، جـ ٦، ص ٦٨. ابن النديم، الفهرست، ص ١٠٤. ابن خلكان،

على الشراب والغلمان وأنواع المجون الأخرى في سبيل إبعاد تهمة الزندقة عنهم والحكم عليهم بالمجون دونها[٤].

حاولت الزندقة[٥] أن تدخل على المسلمين بواسطة الفكر والأدب، حيث قاموا بتأليف كتب أشار إليها الجاحظ بأنها " **ليس في كتبهم مثل سائر ولا خبر طريف ولا صنعة أدب ولا كلمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية.. وجل ما فيها ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين**"[٦]. كما يشير أيضا إلى قيام هؤلاء الزنادقة باستخدام الحبر والورق الجيد وتلميعه كل ذلك بهدف إغواء الناس ليسهل جرهم لأهدافهم " **وددت أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض، وعلى تخير الحبر الأسود المشرق البراق، وعلى استجادة الخط والإرغاب لمن يخط، فإني لم أر كورق كتبهم ورقا، ولا كالخطوط التي فيها خطا**"[٧].

كان المأمون إذا سمع بزنديق أمر بحمله إلى مجلسه وفيه جماعة من المتكلمين - المعتزلة - فناظروه لعلهم يقنعونه ويردونه إلى الإسلام، وكان المأمون يشترك في مناظرته، فإذا لم يكف عن غوايته، أمر بقتله[٨] " **سأل أمير المؤمنين الزنديق الذي كان يكنى بأبي علي، ذلك عند ما رأى من تطويل محمد بن الجهم[٩] وعجز العتبي[١٠] وسوء فهم القاسم بن سيار[١]، فقال له المأمون: أسألك**

---

وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٢٠٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٧، ص ١٥٧. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ١٣، ص ١٣٧.

١ - حماد بن سابور، ممن اتهم بالزندقة وقد سبق الإشارة إليه. الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٤٤٥. ابن حجر، لسان الميزان، جـ ٢، ص ٣٤٧. ابن المعتز، الطبقات، ص ٦٩

٢ - يونس بن محمد بن كيسان أبي فروة(ت: ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م). كاتب متزندق خالط ابن المقفع. ووالبة بن الحباب، وحماد عجرد وبشار بن برد، وحماد الراوية، وآخرين، كانوا يجتمعون على الشرب وقول الشعر، ويهجو بعضهم بعضا، خرج إلى البصرة فلم يزل بها حتى مات. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٩، ص ٤٨. السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١، ص ١١٨.

٣ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص ٤٨١. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٢٦.

٤ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٧، ص ٤٨٣.

٥ - أشار بلا أن نشأة الزندقة كنوع من الارتياب تجاه دين الفاتحين، فهي مظاهرة قصوى ومنتهى غاية الشعوبية التي أملاها شعور الفرس بتفوقهم على العرب في الميدانين الزمني أولا والروحي ثانياً. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣١١.

٦ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص٥٧ - ٥٨

٧ - المصدر نفسه، ص ٤١

٨ - المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٤٧٩

٩ - محمد بن الجهم بن هارون السمري، أبو عبد الله الكاتب (ت: ٢٧٧هـ/٨٩٠م). روى كتابه في معاني القرآن، وهو أحد الثقات من رواة المسند. الحموي، معجم الأدباء، جـ ٦، ص ٩١.

١٠ - محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية (ت: ٢٢٨هـ/ ٨٤٢م). كان أديبا فاضلا شاعرا مجيدا، وكان يروي الأخبار وأيام العرب. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٣٩٨.

**عن حرفين فقط. خبرني: هل ندم مسيء قط على إساءته، أو نكون نحن لم نندم على شيء كان منا قط؟! قال: بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم. قال: فخبرني عن الندم على الإساءة، إساءة أو إحسان؟ قال: إحسان. قال: فالذي ندم هو الذي أساء أو غيره؟ قال: الذي ندم هو الذي أساء. قال: فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر، وقد بطل قولكم: إن الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة. قال: فإني أزعم أن الذي أساء غير الذي ندم. قال: فندم على شيء كان منه أو على شيء كان من غيره؟ فقطعه بمسألته، ولم يتب ولم يرجع، حتى مات، وأصلاه الله نار جهنم"[٢].**

والخليفة المعتصم الذي اكتشف أن قائده الأفشين زنديقاً فبعد محاكمته وثبوت الزندقة عليه أمر بقتله[٣]، وفي ذلك يقول الجاحظ: " **كان الأفشين يقول: إذا ظفرت بالعرب شدخت رؤوس عظمائهم بالدبوس والدبوس شبيه بهذه العصا التي في رأسها عجرة"[٤].**

مما سبق يتبين أن خلفاء بني العباس لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها ثبوتا لا يرقى إليه الشك. وإنهم كانوا يقتلون من كان ينزع في مجوسيته إلى المانوية[٥]، أما الموبقات الأخرى من شرب الخمر واللهو والمجون فكانوا يتسامحون فيها ويغضون الطرف عنها[٦].

---

١ ـ القاسم بن سيار البغدادي الكاتب الشاعر؛ خرج إلى خراسان واتصل بذي الرياستين الفضل بن سهل. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ٧، ص ٢٠٢.

٢ ـ الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٤٧٩

٣ ـ حيدر بن كاوس، حارب بابك وظفر به، كان الأفشين أيّام حرب بابك ومقامه بأرض الخرّمية لا تأتيه هديّة من أهل أرمينية إلّا وجّه بها إلى أسروشنة فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر فيكتب عبد الله بخبره إلى المعتصم فيكتب المعتصم بتعرف جميع ما يوجّه به الأفشين من الهدايا إلى أسروشنة، فيفعل عبد الله ذلك.

وكان الأفشين كلّما تهيّأ عنده مال حمله في أوساط أصحابه من الدنانير، كان الرجل يحمل ما بين الألف فما فوقه، ولمّا تواترت أمثال هذه من الأفشين تغيّر له المعتصم وأحسّ الأفشين بتغير حاله عند المعتصم.

فقام المعتصم بسجنه بعد أن رفع عنه أنه يكاتب المازيار، كما اتهمه بدين المجوسية، فظل في السجن حتّى مات سنة ٢٢٦هـ. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ٤، ص ٢٦١-٢٧٠. الجوزي، المنتظم، جـ ١١، ص٩٨-٩٩، ص١١١. الذهبي، تاريخ الإسلام، جـ ٣، ص ١١٧. الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٤٣-٤٤. سالم، العصر العباسي الأول، جـ ٣، ص ١٦٥-١٦٨.

٤ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٣، ص ٣٩

٥ ـ أشار بلا أن أصحابها تعرضوا للاضطهاد منذ فترة طفولة الجاحظ، أي منذ منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ص ٣٠٥.

٦ ـ الدجيلي، عبد الصاحب. الشعوبية، ط٢، مطبعة القضاء، النجف: ١٩٦٠م، ص ٨٢ (سيشار إليه فيما بعد: الدجيلي، الشعوبية).

وقد ظهرت أسماء زنادقة كانت لهم اليد الطولى، فكان الزنادقة يتسترون على بعضهم البعض فهذا حماد عجرد[1] يجعل يونس بن أبي فروة مخدوعاً ببعض المتهمين في دينهم، في حين أنه من الزنادقة[2]، يقول الجاحظ: " **ويونس بن أبي فروة الذي زعم حماد عجرد أنه غرّ نفسه بهؤلاء الزنادقة كان أشهر بهذا الرأي**"[3] ويونس هذا شعوبي كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه[4].

وقد عرض الجاحظ الحيل التي يحتال بها الزنادقة في خداع الناس، ومن أشهرهم ابن أبي العوجاء وإسحق بن طالوت والنعمان بن المنذر وأشباههم، وكشف خطرهم على الإسلام والعروبة "**بل لا شبهة في الزندقة خاصة. فقد كانوا يصنعون الآثار، ويولدون الأخبار، ويبثونها في الأمصار، ويطعنون في القرآن، ويسألون عن متشابهه، وعن خاصه وعامه، ويضعون الكتب على أهله. وليس شيء مما ذكرنا يستطيع دفعه جاهل غبي، ولا معاند ذكي**"[5] . إن تساؤلات الجاحظ تهدف إلى تكفير الزنادقة وإثارة الناس عليهم، كما يهدف إلى دفع الخليفة أن يتخذ موقفاً منهم لدفع خطرهم عن الناس.

إن الشعوبية وقرينتها الزندقة لم تكن حركة طبقة اجتماعية معينة فقد سارت معها جنبا إلى جنب، كما ظهرت في إطار ديني وثقافي بين تلك الفئات التي لها المؤهلات الفكرية والاستعداد الذهني اللازم. وكل محاولة لإكسابها صفة طبقية أو لحصرها في فئة اجتماعية معينة إنما يناقض طبيعتها وشمولها[6].

ويمكن أن نجمل ما سبق بما أشار إليه الدوري. حيث: تظهر الصورة جلية في العلاقة بين الشعوبية والزندقة، بل إن الشعوبية كانت من الدوافع السياسية للزندقة، وهذا نتيجة الارتباط الوثيق من ناحية السير التاريخي بين العروبة والإسلام من جهة، وبسبب ارتباط الشعوبية والزندقة بمفاهيم وعقائد دينية قديمة غير إسلامية مجوسية وغيرها. ومن الواضح أن

---

١ - شنع السيد المرتضى على حماد الراوية بقوله: "واما حماد الرواية فكان منسلخا من الدين، زاريا على أهله، مدمنا لشرب الخمور وارتكاب الفجور". السيد المرتضى، أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين (ت: ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م). الأمالي، تحقيق محمد بدر، ط ١، مطبعة السعادة، مصر: ١٩٠٧م، جـ ١، ص١٣٣ (سيشار إليه فيما بعد: السيد المرتضى، الأمالي).

٢ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص٢٧

٣ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٤٨٤.

٤ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ١٠

٥ - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، جـ ٣، ص ٢٧٨.

٦ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٦١. عقل، صراع الحضارات، ص ٩١

الشعوبية والزندقة تستمدان الوحي من نطاق حضاري خارج نطاق العروبة والإسلام، وأن آرائهما في الأساس آراء وافدة ترى أصولها وولاءها خارج المجتمع العربي الإسلامي، وكما وقف الجاحظ في وجه الشعوبية تصدى أيضاً للزندقة فاضحا آراءها وأهدافها ورجالها. ويمكن القول بأن الجاحظ أدى دوراً بارزاً في مواجهة الزندقة بحسب مجاله فكانت كتاباته لا تفتر تفند حججهم وترد عليهم وتبين جهلهم وخطأهم، وهو دور العالم الذي ينبغي أن يكون في صف أمته مدافعاً عنها بما أوتي من علم وبيان[1].

## ثالثاً: الشيعة

الشيعة في اللغة، الأتباع والأنصار قال ابن منظور :" **الشيعة كل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيعة، والجمع شيع**"[2] وعرفها الشهرستاني "**الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص. وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية، إما جليا، وإما خفيا. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده**"[3] ظهرت الشيعة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ رأى البعض أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) هو أحق المسلمين بخلافة الرسول ويجب أن تبقى الخلافة في ذريته من بعده أي أن تكون الخلافة بحسب القرابة من الرسول وراثية[4]. وحجتهم في ذلك قولهم بما أن الرسول لم يكن لديه أولاد ذكور، إذا تنتقل الخلافة إلى أقرب الناس له، وخاصةً أن علي هو زوج ابنة الرسول فاطمة الزهراء[5]، وهو الذي رباه الرسول صلى الله عليه وسلم إضافةً إلى صفات كثيرة يتحلى بها علي بن أبي طالب، كالعلم والشجاعة وأول من أسلم من الصبيان ولم يعبد صنماً قط[6].

تناول الجاحظ موضوع الإمامة في العديد من تراثه، وأثناء حديثه كان يرد على قول الشيعة في وجوب أن تبقى الإمامة في بيت علي، وأنها متى صلحت في الأخوة صلحت في أبناء العم وهكذا دواليك " **والإمامة اليوم لا تصلح في الأخوة ولو صلحت في الأخوة كانت تصلح في ابن**

---

١ - الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٣- ٥٨. النعمي، موقف الجاحظ، ص ٣٥٣-٢٥٤.

٢- لسان العرب، جـ ٨، ص١٨٨.

٣ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٤٦

٤- ابن العربي، العواصم، ص ١٧١. أبو زهرة، محمد. تاريخ الجدل، ط ٢، دار الفكر العربي، القاهرة:١٩٨٠م، ص١٣٠ (سيشار إليه فيما بعد: أبو زهرة، تاريخ الجدل).

٥ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ١، ص ١٩٧.

٦ - الجاحظ، العثمانية، ص ٢٠. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ ١، ص ١٩٧.

العم، ثمّ إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا في الولد"[1]. فكأن الجاحظ يتنبأ بما ستؤول إليه الإمامة عند الشيعة الإمامية بعد موته ببضع سنوات، وتتمثل نبوءة الجاحظ في غياب الإمام الثاني عشر وهو المهدي المنتظر[2].

شرح الجاحظ نظرية الشيعة في الإمامة في رسالة استحقاق الإمامة حيث تناولها من منطلق تأريخي[3]. وقد سعى في الرد عليهم وعلى حججهم " **فطبقة تدعي أن قتل علي لعثمان كان من اكبر طاعاته لله، وهذه الطبقة هم الشيعة**"[4] والمهم في هذه الرواية وغيرها البعد التاريخي الذي يضيفه الجاحظ لنا في موضوع الخلاف بين علي ومعاوية. كما عرض موقف المعتزلة من أراء الشيعة في مسألة الإمامة من خلال رسائله ومنها الإمامة ورسالة التربيع والتدوير بقوله: "**وحتى لو كنت إمام الرافضة لقتلت في طرفة، ولو قتلت في طرفة لهلكت الأمة. لأنك رجل لا عقب لك**"[5]. وفرق الجاحظ بين الشيعة المعتدلين والغلاة منهم، وصب جام غضبه على الفئة الثانية[6].

عارض الجاحظ أستاذه النظام الذي رأى أن أبا موسى الأشعري حمل علياً على القبول به حملا لا خيار له فيه نزولا عند رغبة اليمانية المؤيدين لأبي موسى، لأن ابا موسي لم يكن له أنصار أقوياء يفرضونه فرضا على الخليفة، ولم يكن علي ضعيف الرأي ليقبل أن يمثله في التحكيم عدو مرصد. وإنما قبل علي بالتحكيم تلافيا للشقاق أن يدب في صفوف عسكره بسبب رفع المصاحف "**وقد ادعى معاوية الخلافة زاعما انه اولى الناس بالمطالبة بدم عثمان ومن يطالب بدم الخليفة أحق الناس بالخلافة. وليس هذا سببا كافيا للإمامة. وقد اعتمد معاوية على القوة والبطش للوصول إلى الخلافة، كما استند إلى موقف سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب. واستغل للوصول إلى غايته انتشار جند علي وعدم تماسك جنده؛ ولجأ إلى الترغيب بالمال والمناصب ليستميل الناس اليه. واحتال برفع المصاحف على رؤوس الرماح ليخدع جند علي ويشق صفوفهم، واستفاد من دهاء عمرو بن العاص ومواقف أبي موسى الأشعري في التحكيم او انقلابه على علي**"[7].

كما أن أبا موسى لم يكن غبيا كما يقول الشيعة بل كان عاقلا صحيح التدبير سديد الكيد متفقها في الدين عالما بالقياس والحجج مشهورا بالحلم وكان واليا ناجحا للخلفاء السابقين وقائدا

---

١ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ١٠٢.

٢ - الجوزي، مكانة العقل، ص ٣١٥

٣ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ ,p ٨٣

٤ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص٣٥٦

٥ - الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، ص ٤٧١

٦ - الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص ٤٧٧. فوزي، الجاحظ مؤرخاً، ص ٤٢١

٧ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٥٠.

للفتوح "وكان ما امتحن به عليّ واشتدّت البلوى على أصحابه فيه وعلى أصحاب النبيّ وعلى من معه من أجناده ومن خاصّة أهله، أن صار الحكم الموازي لعمرو بن العاص أبا موسى الأشعري، فكان من خدعه له ومن غدر عمرو به ما قد علمتم"[1].

استخدم الجاحظ المنهج العقلي في معالجة الروايات، يتضح ذلك من خلال رسائله كالنابتة والعثمانية والحكمين، فمثلا يعلن موقفه من الشيعة فينتقدهم، وفي نفس الوقت يؤيد علياً كما في قوله: "قالوا: وكان علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، يكثر ركوب بغلة عبد الله بن وهب الشهباء، التي غنمها يوم النهروان. هذا من قول الشيعة، وأما غيرهم فينكرون أن يكون علي رضي الله عنه، يرى أن يغنم شيئا من أموال أهل الصلاة، كما لم يغنم في أموال أصحاب الجمل"[2]. ويجب أن نعلم أن موقف الجاحظ يتخذه من الشيعة التي ادعت بما ليس في علي من شيء[3]. وكذلك في قوله: "فاعدل الأمور وأنصفها بينكم وبينهم أن تجعلوا الخبر في النصف مما بين إسلامه إلى وفاة النبي - صلى الله عليه "[4]

رد الجاحظ على شيعة علي التي رأت أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده بقوله: "إنك ستقاتل من بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين "[5] الناكثون حسب ما يرى الشيعة طلحة والزبير وأصحابهما، والقاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون عبد الله بن وهب وأصحابه[6].

وموقف مهم أشار إليه الجاحظ " والناس- حفظك الله وأرشدك- عن تدبير هذا الإمام غافلون، لا الشيعة يعرفونه فيضيفونه إليه ويحتجون به على الخصوم ويوسعون الناس عذرا عند تضايق الأمر عليهم فيه"[7] وهذا رأي خطير إذا ثبت قلب مقاييس الشيعة رأسا على عقب. فالشيعة ترى أن

---

١ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٥٧.

٢- الجاحظ، البغال، مقدمة التحقيق، ص ١١.

٣ - لقد حاولت أكثر الشخصيات نضجا تجنب إراقة الدماء توصلا لحل سلمي ولكن جهودها ذهبت عبثا واصبح البصريون مرغمين على الانحياز إلى احدى الفرق المواقف الثلاثة التي أملتها الحوادث: الوقوف إلى جانب علي، أو المقاتلة تحت راية عائشة أو التزام حياد الحكم. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ٢٥٩.

٤ - الجاحظ، العثمانية، ص ٢٩

٥ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨٣

٦ - الجاحظ، العثمانية، ص ٢٩

٧ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٧.

علي أولى بالخلافة بسبب القرابة والرواية والقدم والزهد. هذا الرأي قال به الشيعة ورفضه الجاحظ في رسالة استحقاق الإمامة وكتب أخرى[1].

كما إن من معتقداتهم عصمة الأئمة أي أن الإمام لا يخطئ بل كل ما يصدر عنه صواب، ويؤمنون بغيبة الإمام أي أن الإمام لا يموت بل غاب وسيعود يوماً ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن تكون قد مُلِئت ظلماً وجوراً، وهذه هي فكرة المهدي، ويؤمنون أيضا بشفاعة الأئمة أي أن الإمام وسيط بين المؤمن وبين الله، وهذا الإمام يشفع للمؤمن[2].

الجاحظ عندما يريد أن يورد ما يقلل من شأن فرقة ما فإنه لا تعييه الحيلة، فقد أورد رواية عن شيخ أباضي حتى أنه نسي اسمه في سبيل أن يوردها وهذه لم تكن عادة الجاحظ: **"قال الشيخ الإباضي وقد ذهب عني اسمه وكنيته، وجرى يوما شيء من ذكر التشيع والشيعة، فأنكر ذلك واشتد غضبه عليهم، فتوهمت أن ذلك إنما اعتراه للإباضية التي فيه، وقلت: وما علي إن سألته؟ فإنه يقال: إن السائل لا يعدمه أن يسمع في الجواب حجة أو حيلة أو ملحة. فقلت: وما أنكرت من التشيع ومن ذكر الشيعة؟ قال: أنكرت منه مكان الشين التي في أول الكلمة؛ لأني لم أجد الشين في أول كلمة قط إلا وهي مسخوطة مثل: شؤم، وشر، وشيطان، وشغب، وشح، وشمال.. "**[3].

وقد أشار الجاحظ إلى بعض فرق الشيعة. ومنها: الزيدية التي قال عنها:" **اعلم أن الشيعة رجلان: زيدي، ورافضي، وبقيتهم نزر جاء لازماً لهم. وفي الإخبار عنهما غنى عمن سواهما"**[4].

تنسب الزيدية إلى زيد بن علي( زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ، وهي من الفرق المعتدلة أي من أقرب فرق الشيعة إلى السنة، فقد أجازت واعترفت بخلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان - رضي الله عنهم-، وذلك من باب إن **"إمامة المفضول في وجود الأفضل جائزة"**[5] لأن خلافة ومبايعة الخلفاء الذين سبقوا علي كانت بيعتهم صحيحة مع أنه من الأفضل أن يكون علي هو الخليفة" **وقد يكون الرجل أفضل الناس ويلي عليه من هو دونه في الفضل، حتى يكلفه الله طاعته وتقديمه؛ إما للمصلحة، وإما**

---

١ - في كتابات الجاحظ كثيراً ما يؤكد على هذه النقطة في جل مؤلفاته.

٢- المظفر، محمد رضا. عقائد الإمامية، ط ٨، دار الحوراء، بيروت: ١٩٨٨م، ص١٠٢ (سيشار إليه فيما بعد: المظفر، عقائد الإمامية).

٣ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٣، ص ١٠

٤ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٠٧.

٥- الأمين، عبد الله. دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة، دار الحقيقة، بيروت: ١٩٨٦م، ص١٨٤ (سيشار إليه فيما بعد: الأمين، دراسات).

للإشفاق من الفتنة"[1]. وتعد هذه الفرقة من أكثر الفرق التي لفتت انتباه الجاحظ ليس سياسيا وإنما لعقيدتها الفقهية الدينية المعتدلة وارتباطها على الصعيد الكلامي بالمعتزلة[2].

يشير الجاحظ إلى آرائهم السياسية في رسالة استحقاق الإمامة ومن مبادئهم التي أشار الجاحظ إليها" **أولها القدم في الإسلام. ثم الزهد في الدنيا. ثم الفقه الذي به يعرف الناس مصالح دنياهم، ومراشد دينهم. ثم المشي بالسيف كفاحاً بالذب عن الإسلام، وتأسيس الدين، وقتل عدوه، وإحياء وليه"**[3].

كما يعرض حجج الزيدية، وأسباب اعترافها بحكم أبي بكر وعمر- رضي الله عنهم - ، حيث ترى أنه في حال وقوع الشقاق والخلاف بين الناس فإنه لا ضرر من مبايعة من بيده تستقيم الأمور وتصلح. **"وإنما أحكي لك من كل نحلة قول حذاقهم وذوي أحلامهم، لأن فيه دلالة على غيره، وغنىً عما سواه. وقالوا: وقد يكون الرجل أفضل الناس ويلي عليه من هو دونه في الفضل، حتى يكلفه الله طاعته وتقديمه؛ إما للمصلحة، وإما للإشفاق من الفتنة، كما ذكرنا وفسرنا، وإما للتغليظ في المحنة وتشديد البلوى والكلفة، كما قال تعالى للملائكة: " اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى"[4]. والملائكة أفضل من آدم، فقد كلفهم الله أغلظ المحن وأشد البلوى، إذ ليس في الخضوع أشد من السجود على الساجد له"**[5]. فهم لا يبنون الإمامة على القرابة والحسب كما هو حال باقي فرق الشيعة وإنما على الفضل والتقدم. ومن ثم يتبدى حرص الجاحظ على مناقشة الشيعة في آرائهم مستخدماً معهم الحجة والإقناع والمنطق[6].

ومن الفرق أيضا الرافضة التي انبثقت بعد أن ترحّم زيد بن علي على الخليفتين أبي بكر وعمر- رضي الله عنهم- ، ولم يبرأ منهم[7]، مما أدى بجماعة من أتباعه إلى رفضه فسموا

---

١ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢١٤.

٢ - عندما اعتزل واصل عن أستاذه بالقول بالمنزلة بين المنزلتين. فسمي هو وأصحابه معتزلة. وقد تتلمذ على يديه زيد بن علي وأخذ الأصول فلذلك صارت الزيدية كلهم معتزلة. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص٢٩. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٩٠.

٣ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٠٤.

٤ - البقرة، الآية ٣٩.

٥ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٣١٧.

٦ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ,p ٨٧

٧ - عندما أراد زيد بن علي الخروج لمواجهة الأمويين في الكوفة اجتمعت إليه جماعة من رؤوسهم فسألوه قوله في أبي بكر وعمر، قال: زيد رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت احدا من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيرا، قالوا: فلم تطلب إذا بدم أهل هذا البيت إلا أن وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم، فقال لهم زيد إن أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه و سلم من الناس أجمعين وإن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة، فقالوا جعفر إمامنا اليوم بعد أبيه وهو أحق بالأمر بعد أبيه ولا نتبع زيد بن علي فليس بإمام، فسماهم زيد الرافضة. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٢٠٤.

رافضة وهم الذين رفضوا بيعته، أما من بايعه فسموا الزيدية[1]. بمرور الزمن أصبح هناك خلط بين الفرق حتى أن فرقة الاثني عشرية أحيانا تدرج ضمن الرافضة وهذا خطأ بسبب اختلاف المبادئ والمعتقد بينهم. وأتباع هذا المذهب يرون أن الإمامة لا تخرج من نسل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهذا ما أوضحه الجاحظ بقوله :" **من يجعل القرابة سبباً من أسبابها وعللها، لأني قد حكيته في كتاب الرافضة**"[2].

وأشار الجاحظ إلى أن أتباع هذه الفرقة بعد أن افترقوا عن الزيدية غالوا في مبادئهم حتى أنهم لا يتوانوا عن قتل حتى إمامهم" **وحتى لو كنت إمام الرافضة لقتلت في طرفة**"[3]. ويرى الجاحظ أن فرقة الرافضة قد غالت في مبادئها، أكثر من غلو اليهود والنصارى " **فلو كانت دون هذه المنزلة منزلة لما انتهت اليهود دون بلوغها، ولو كانت فوق ما قالت النصارى منزلة لما انتهت دون غايتها. وبذلك السبب صارت الرافضة أشد صبابة وتحرقاً، وأفرط غضباً، وأدوم حقداً**"[4].

كما أن الرافضة ادعت بأنها أعلم بحال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) سواء مولده أم وفاته، بل هم أعلم به حتى من أولاده بعد أن ظهر الخلاف على تاريخ وفاته " **وقالت علماء الرافضة: نحن أعلم به من ولده إلا الأئمة منهم. ولم يقل هذا القول إمام منهم قط، ولكن علي استشهد وهو ابن ثمان وخمسين سنة** "[5].

ويعارض الجاحظ حجج الرافضة في أن الإمامة محصورة في علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وولده من بعده معللاً ذلك بقوله "**فإن زعمت الرافضة ان الله أنزل في علي آيا كثيرا، فكان مما انزل فيه وفي ولده قوله: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[6]. فأولي الأمر علي وولده. فلعمري لئن كان أصحاب الأخبار قد أطبقوا على أنها نزلت في علي وولده إن طاعتهم لواجبة، وإن كان هذا شيئا تقوله متقول، أو جاء من وجه ضعيف، فهو مع ضعفه شاذ. وليس في ذلك لكم حجة، لأن الحديث قد يحتمله الرجل الواحد الثقة عن مثله، فيكون شاذا، ما لم يكن مستفيضا شائعا قد نقل عن**

---

١ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٩. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٤، ص ٨٢ وما يليها.

٢ - انظر: الجاحظ، رسالة في الجد والهزل "مقالة الجاحظ في الزيدية والرافضة". ص ٣٠٩ وما يليها "مقالة الجاحظ في الزيدية والرافضة".

٣ - الجاحظ، رسالة في التربيع والتدوير، ص ٤٧١

٤ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٥٤.

٥ - الجاحظ، العثمانية، ص ٤٢.

٦ - سورة النساء، الآية ٥٩.

المستفيض الشائع. وقد يكون الحديث يحتمله الرجلان والثلاثة وهم ضعفاء عند أهل الأثر فيكون الحديث ضعيفا لضعف ناقليه"[1]

كما يرفض الجاحظ تأويل الرافضة في القصة التي اختلقوها " تزعم الرافضة أن سائلا دخل المسجد فسأل الناس وعلي زاكع، فلم يعط شيئا، فنزع علي خاتمه فأعطاه، فانزل الله فيه: {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون}[2]. وأنت إذا سمعت بتأويل ابن عباس وتأويلهم علمت أن تأويلهم بعيد من لفظ التنزيل[3]، قرب تأويل ابن عباس منه ولو كان الأمر كما قالوا ما كان أحد أعلم به من ابن عباس ولا أشعر به منه"[4].

وخلاصة رأي الجاحظ بالرافضة، أنه يكفرهم صراحة " وقول الرافضة تشبيه مصرح، وكفر مجلح"[5] كما أنه وضعهم في منزلة مع اليهود "وكفى بالتشبيه قبحاً، وهو قول يعم اليهود وإخوانهم من الرافضة"[6].

## رابعاً: الخوارج

فرقة سياسية إسلامية، ظهرت في عهد علي بن ابى طالب (رضي الله عنه) وبالتحديد أثناء موقعة صفين[7]، يعرف الخارجي بأنه الشخص الذي يخرج على الإمام المتفق على إمامته

---

١ ـ الجاحظ، العثمانية، ص ١١٥.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ٥٥.

٣ ـ إن تفسير الآية الكريمة من خلال القرطبي توضح أنها عامة في كل من يجاهد الكفار إلى قيام الساعة. وقد سئل أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عن معنى" إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا" هل هو علي بن أبي طالب؟ فقال: علي من المؤمنين، يذهب إلى أن هذا لجميع المؤمنين. أما تفسيرها من خلال الجاحظ فذكر أن النبي ـ صلى الله عليه تلا { ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون } فإن تكن هذه الآية كما قال ابن عباس ومجاهد، فليس لعلي فيها ذكر. وإن يكن الأمر ليس على ما قال ابن عباس فليس تأويل الرافضة بأقرب التأويل. القرطبي، تفسير القرطبي، جـ ٦، ص ٢٢١. الجاحظ، العثمانية، ص ١١٨.

٤ ـ الجاحظ، العثمانية، ص ١١٩.

٥ ـ الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٢٩٦.

٦ ـ المصدر نفسه، ص ٣٥١.

٧ ـ الطبري، تاريخ، ص ١٠٩-١١٣. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٧، ٦٠. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ١، ص١١٤-١٢١،

ذهب بلا ان الخوارج أعلنوا التمرد عندما أفلت النصر من أيديهم وهذا غير صحيح تماما بدليل أن الانشقاق لم يحدث إلا بعد حادثة رفع المصاحف، كما أشار لهم أنهم طامعون غايتهم تفريق كلمة المسلمين وهذا لا يتفق وما قاموا به من اعتزال جيش علي بن أبي طالب. الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٢٩١.

الشرعية خروجاً في أي زمن كان[1] "**كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أم كان بعدهم على التابعين لهم بإحسان والأئمة في كل زمان**"[2]. قال الأشعري: "**والسبب الذي سُموا له خوارج؛ خروجهم على علي بن أبي طالب**"[3]. كما زاد ابن حزم بأن اسم الخارجي يلحق كل من أشبه الخارجين على الإمام علي أو شاركهم في آرائهم في أي زمن. وهو يتفق مع تعريف الشهرستاني[4].

كان سبب خلاف الخوارج مع علي - رضي الله عنه - أن بيعته كانت صحيحة من وجهة نظرهم، باتفاق الأمة، فما كان له أن يلجأ إلى التحكيم بينه وبين معاوية[5]. وهذه المسألة وقف عندها الجاحظ في تفسيره خروج الخوارج على علي "**وقد اتهمه خصومه بأنه ترك القتال إما جبنا وإما طمعا في توبة معاوية وعمرو وإما ندما على ما أراق من دماء. وكل هذا من سوء التدبير والعجز**"[6] ورأوا أنه كان عليه أن يقاتل معاوية قتال المؤمن بحقه، وعابوا عليه أنه احتكم إلى الرجال، ولم يحتكم إلى القرآن الكريم، وزعموا أنه أثار بذلك فتنة بين المسلمين[7]. وقد انبثقت عن الخوارج فرق مختلفة هذه الفرق على مر الزمن بلغت اثنتين وعشرين فرقة، منها: الأزارقة[8]، والنجدات[9].

وقد أعلن الخوارج الثورة على علي ومعاوية وقاموا بثورات كثيرة، وتصاعدت هذه الثورات منذ حربهم ضد على بن أبى طالب (رضي الله عنه) سنة(٣٨ هـ / ٦٥٨ م)

---

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٣٠٨

٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١١٤

٣ - الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، جـ ١، ص ٢٠٧. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٣٢. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي(ت: ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م). فتح الباري بشرح صحيح البخاري، شرح عبد العزيز بن عبدالله، دار المعرفة، بيروت: ١٩٦٠م، ص٤٥٩ (سيشار إليه فيما بعد: ابن حجر، فتح الباري).

٤ - ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري(ت: ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م). الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة: ٢٠١٠م، جـ ٢، ص ١١٣(سيشار إليه فيما بعد: ابن حزم، الفصل في الملل).

٥ - مقدمة تحقيق رسالة الحكمين، ص ٢٩

٦ - المصدر نفسه، ص ٣١

٧ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ١١٨.

٨ - نسبة إلى رئيسهم نافع بن الأزرق الحنفي، كان نافع بن الأزرق من بني حنيفة، ويقال: إنه كان مقيما معهم فنسب إليهم. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ١٤٣.

٩ - نسبة إلى نجدة بن عامر بن عبد الله بن سيار كان نجدة مع نافع بن الأزرق ففارقه مع قوم لتبرئه من القعد، وصار نجدة إلى اليمامة فنزل بإباض فبايعه خمسون على أنهم إن وجدوا من هو خير لهم منه بايعوه وبايعه معهم. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٧، ص ١٧٣.

بالنهروان، حتى تحولت إلى تحرك مسلح ضد بنى أمية. لجأ الخوارج إلى القوة واستخدام السيف في فرض أفكارهم وآرائهم على الناس، وأظهروا في صراعهم ضد الدولة الأموية كثيرًا من ضروب الشجاعة والتضحية والإقدام وكانت الأعداد القليلة منهم تهزم جيوشًا جرارة للدولة، أشار الجاحظ إلى ذلك بقوله: "**خرج رسول المامون فقال لهم: نقول لكم متفرقين ومجتمعين: ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته، وليقل أيما أحب إلى كل قائد منكم إذا كان في عدته من صحبه وثقاته: أن يلقى مائة تركي أو مائة خارجي؟ فقال القوم جميعا: لأن نلقى مائة تركي أحب إلينا من أن نلقى مائة خارجي**"[١]. كما يضيف "**والقوة على كثرة الركض حتى يجاوز في ذلك رجال الأتراك وفرسان الخوارج**"[٢].

وأوضح الجاحظ سبب موقف الخوارج من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يتمثل في غفلتهم وعدم فهمهم للإمام وطريقة تفكيره "**الخوارج الذين هم عليه ينقمون والمكفرون له من هذه المارقة يعرفون ذلك التدبير، وهم كانوا من خاصة جنده من المحققين وأصحاب البرانس وأصحاب السما دون غيرهم، فيرتدعون عن أكفاره وشتمه وخلعه؛ وقد كان ينبغي لمن خالف عليا مرة- حفظك الله- وهو مستبصر في نفسه ثم تبين أن الحق معه، أن يرتدع عن الاستبصار في أمر آخر فلا يدري لعل السبيل فيه كالسبيل فيما قبله**"[٣].

كما أشار الجاحظ إلى ضلال الخوارج في قضية التحكيم فقد أخطأ الخوارج في موقفهم من علي، فلم يفهموا تدبيره مرتين: عند ما دعاهم إلى مواصلة القتال فأبوا، وعندما دعاهم إلى استئناف القتال فأبوا " **فلو قال لهم بعض نصحائهم: قد علمتم ما كان منا يوم رفع المصاحف من إضلال وجه الرأي ومن خديعة معاوية إيانا ومن إصابة علي وجه الرأي وتنبيهه لنا، فلعل الذي أعطى من نفسه في الحكمين من شكل ذلك التدبير؛ بل قد رأيتم وسمعتم ما كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قضية الحديبية حين ألغى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب اسم النبوة**"[٤].

أما عن شدة قتال الخوارج وصبرهم على ذلك، فأشار الجاحظ إلى حادثة تولية أسلم بن زرعة[٥] على دستبي[١] "**وولي دستبى فخرج إليها في أصحابه، فلما شارفها عرضت له الخوارج، وكان**

---

١ - الجاحظ، رسالة في مناقب الترك، ص٤٩٣.

٢ - الجاحظ، الحيوان، جـ ١، ص ٩٠.

٣ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٧٧

٤ - المصدر نفسه، ص ٣٧٧

٥ - اسلم بن زرعة الكلابي العامري والي خراسان وكان قبلها على خراج خراسان في ولاية سعيد بن عثمان بن عفان، وشى أسلم لمعاوية بن أبي سفيان على سعيد بن عثمان بأنه يحمل المال وخراج خراسان إلى زياد بن أبيه والي العراق وليس إلى معاوية في الشام، مما أدى إلى عزل سعيد بن عثمان وتولي أسلم بن زرعة ولاية خراسان في عام ٤٣هـ / ٦٦٣م. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٥، ص ٦١٦. اليعقوبي، البلدان، ص ١٢٩.

أكثر منهم عددا وعدة، فقال: والله لأصافنهم، ولأعيبن أصحابي فلعلهم إذا رأوا كثرتهم انصرفوا، ولا أزال بذلك قويا في عملي هذا. فلما رأت الخوارج كثرة القوم نزلوا عن خيولهم فعرقبوها وقطعوا أجفان سيوفهم، ونبذوا كل دقيق كان معهم، وصبوا أسقيتهم. فلما رأى ذلك رأى الموت الأحمر. فأقبل عليهم فقال: عرقبتم دوابكم وقطعتم أجفان سيوفكم، ونبذتم دقيقكم؟ خار الله لنا ولكم، ثم ضرب وجوه أصحابه وانصرف عنهم"[٢].
ولو أن شجاعتهم وبطولاتهم اتجهت في مجال الفتوحات الإسلامية، لكان ذلك أجدى وأنفع.

حاول الجاحظ أن يستخرج قانونا يحكم العلاقة بين التدين والبسالة ويطبقه على الخوارج الذين اشتهروا ببسالتهم في القتال فيقول إن سبب ذلك هو عقيدتهم الدينية التي تدعو إلى الجهاد وبذل الروح للتخلص من الحاكم الظالم. "وقد علم أن سبب استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم في ذلك، إنما هو بسبب الديانة، لأنا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم، يقاتلون مثل قتالهم، .... كلهم في القتال والنجدة، وثبات العزيمة، والشدة في البأس سواء. فاستوت حالاتهم في النجدة"[٣].

وأشار الجاحظ إلى أن الإنسان مهما بلغت همته من علو، فإنها لا تصل إلى مستوى طلب الخلافة، سواء كان بالنسب أو بالدين، لكن حسب ما يرى الجاحظ فإن الخوارج وصلت همتهم إلى طلب الخلافة بسبب الدين وإن تقاصر عنهم النسب " وليس إلى الناس بعد الهمم وقصرها، وإنما تجري الهمم بأهلها إلى الغايات، على قدر ما يعرض لهم من الأسباب. الا ترى أن ابعد الناس همة في نفسه، وأشدهم تلفتا إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب الخلافة، لأن ذلك يحتاج إلى نسب، أو إلى أمر قد وطئ له بسبب، كسبب طلب أوائل الخوارج الخلافة بالدين وحده دون النسب. فإن صار من الخوارج فقد حدث له سبب إمكان الطلب، أكدى أم نجح"[٤]. حيث يشير الجاحظ إلى أساس اختيار الإمام عند الخوارج وهو الرسوخ في الدين وحده دون النسب والقرابة.

اشتهر عن الخوارج ثباتهم على الكلمة مهما عظم الأمر عليهم، لا يأخذهم في ذلك خوف أو جزع "وقدموا رجلا من الخوارج إلى عبد الملك بن مروان لتضرب عنقه، ودخل على عبد الملك ابن له صغير قد ضربه المعلم، وهو يبكي، فهم عبد الملك بالمعلم، فقال له الخارجي: دعوه يبكي فإنه أفتح لجرمه، وأصح لبصره، وأذهب لصوته. قال له عبد الملك: أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟ قال الخارجي: ما ينبغي لمسلم أن يشغله عن قول الحق شيء! فامر بتخلية سبيله"[٥]. وسبب هذه الإشادة أن المعتزلة

---

١ - دستبى: كورة كبيرة كانت مقسومة بين الري وهمذان فقسم منها يسمى دستبى الرازي وهو يقارب التسعين قرية وقسم منها يسمى دستبى همذان وهو عدة قرى. الحموي، معجم البلدان، جـ ٢، ص٤٥٤.

٢ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٥، ص ١٠٤

٣ - الجاحظ، رسالة في الجد والهزل، ص ٣٢٨

٤ - الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص ٣٠٥

٥ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢١٧

والجاحظ منهم يوجبون الخروج على أئمة الجور، بل ويرون نصرة الخارجين عليهم ولذلك فهم يرون نصرة الخوارج على معاوية، لأنهم كانوا .ملتزمين بالدين بينما لم يظهر على معاوية مثل ذلك[1].

ترأس عبدالله بن وهب الراسبي[2] الخوارج " وأرادوا عبد الله بن وهب الراسبي على الكلام يوم عقدت له الخوارج الرياسة فقال: وما أنا والرأي الفطير، والكلام القضيب، ولما فرغوا من البيعة له قال: دعوا الرأي يغب[3]، فإن غبوبه يكشف لكم عن محضه"[4]. وكان من شدة ابن وهب الراسبي أن رجلاه قطعتا فظل يقاتل وهو يقول: " الفحل يحمي شوله معقولا"[5].

استأنف الخوارج نشاطهم على نحو أعنف بعد وفاة معاوية سنة ٦٠هـ/٦٧٩م، فأرسل إليهم يزيد بن معاوية حملة بقيادة عبيد الله بن زياد، فتصدى لهم بقوة، ثم ازدادت ثوراتهم بعد وفاة يزيد سنة ٦٤هـ /٦٨٣، مستغلين في ذلك حالة الفوضى التي سادت العراق، ولما استقامت الأمور للأمويين كلف عبد الملك بن مروان المهلب بن أبي صفرة[6] عن طريق وإليه على العراق الحجاج بمواجهة الخوارج، فاستطاع أن يكسر شوكتهم، ويخمد أنفاسهم، وقد أشار الجاحظ في حديثه عن الخوارج والحجاج بقوله: "وكتب الحجاج إلى المهلب يعجله في حرب الأزارقة"[7]، فاستكانوا فترة طويلة تزيد على العشرين عامًا (٧٨-١٠٠هـ/ ٦٩٧-٧١٨م)، لم تقم لهم ثورة خلالها، ثم عاودوا نشاطهم في عهد عمر بن عبدالعزيز، فاستعمل معهم أسلوب

---

١ - عمارة، محمد. المعتزلة والثورة، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت: ١٩٧٧م، ص٣٧ (سيشار إليه فيما بعد: عمارة، المعتزلة).

٢ - عبد الله بن وهب الراسبي ويلقب بذو الثفنات. اجتمع إليه الخوارج بعد رفضهم التحكيم، إذ خرجوا إلى قرية حروراء وبها سموا، ثم انضم إلى أصحابه عند النهروان. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٢، ص٢٦٠-٢٨١. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٠٢-٢٠٥. اليعقوبي، تاريخ، ص١٨٣. الحموي، معجم الأدباء، جـ٤، ص ٤٦٣.

٣ - يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه. ابن عبد ربه، العقد الفريد. جـ ١، ص ٦٠.

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٧٩

٥ - المثل لم يعرف قائله. ومن المحتمل أن يكون نثرا. والشول: الإبل شالت ألبانها، أي ارتفعت وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر أو ثمانية. والمعقول: المشدود بالعقال. يضرب في احتمال الحر للعظائم وحمايته لحوزته وإن كان مضطهدا. الجاحظ، الحيوان، جـ ٢، ص ٢٤٩. العسكري، الأوائل، ص ٩١. الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم(ت: ٥١٨ هـ / ١١٢٤م). مجمع الأمثال، تحقيق قصي حسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ٢٠٠٣م، جـ ٢، ص١٦(سيشار إليه فيما بعد: الميداني، مجمع الأمثال).

٦ - حين هزم المهلب الخوارج أرسل مبشرا إلى الحجاج يخبره عن نصرة الجيش على الخوارج، وأخبره عن بني المهلب فقال: المغيرة فارسهم وسيدهم، وجوادهم وسخيهم: قبيصة. فأخذ يعدد صفات كل واحد منهم، فقال له الحجاج: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها. ابن السائب الكلبي، جمهرة النسب، ص ٣٦٨. الدينوري، الأخبار الطوال، ٢٧١-٢٧٤. ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص٢١٨.

٧ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢١٢

الحوار، فاستجابوا له لما أقنعهم بخطأ أفكارهم المتطرفة، ووعدوه بالهدوء، لكنهم هبوا من جديد بعد وفاته سنة ١٠١هـ / ٧١٩م، ولم تهدأ ثوراتهم التي استمرت حتى آخر أيام الدولة الأموية[١]. وبلغت حركة الخوارج أقصى درجات العنف في عهد مروان بن محمد آخر خليفة أموي(١٢٧ - ١٣٢هـ/ ٧٤٤- ٧٤٩م) حيث قامت ثورة شيبان بن عبد العزيز اليشكري[٢].

يشير الجاحظ إلى نشاط الخوارج زمن الحجاج من خلال ذكر شخصيات كان لها موقف أو موقعة معه، من ذلك ما ذكره بقوله: " **ومن بني صريم: الصدي بن الخلق، وفد به الحجاج على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ممن أنت؟ قال: من بني صريم. قال له: ما اسمك؟ قال: الصدي بن الخلق. قال: دعا في عنقه! خارجي خبيث! هذا يدل على أن عامة بن صريم كانوا خوارج، وكان منهم البرك الصريمي، واسمه الحجاج، وهو الذي ضرب معاوية بالسيف**"[٣].

لقد عانى أهل العراق من ضربات الأمويين المتتالية، وخاصة تلك التي كان سببها الخوارج. وفي الرواية التالية يوضح الجاحظ ذلك الموقف: "**خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها، في أثني عشر راكباً على النجائب، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو متلثم بغمامة خز حمراء، فقال: علي بالناس فحسبوه وأصحابه خوارج، فهموا به**"[٤] وهذه الحادثة تدل على موقف أهل العراق من الخوارج، حيث أن النكبات التي أصابت الخوارج منذ الخلاف بين علي ومعاوية جعل العراق مسرحاً لها. مما حدا بأهل العراق إلى هذا الموقف تجاههم.

وأوضح الجاحظ في كتاباته بعضا من الصفات التي أعطت موقفهم صلابة رغم قلة عددهم، والتي من أهمها: الإقدام والاندفاع للقتال، وهو ما عبر عنه بالدفعة التي يبلغوا بها ما أرادوا، وينالون الذي أملوا. والصفة الثانية: الصبر على الخبب[٥] وعلى طول السرى[٦]، حتى يصبح القوم الذين مرقوا بهم غارين فيهجموا عليهم وهم بسوء، ولحم على وضم، يتعجلونهم عن الروية، وعن رد النفس عن النزوة والجولة؛ لا يظنون أن أحدا يقطع في ذلك المقدار من

١ - البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٨، ص ٢٠٩

٢ - شيبان بن عبد العزيز اليشكري(ت: ١٣٤هـ/٧٥١م) من أمراء(الحرورية) وقادتهم، تولى إمارتهم سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٥م، فقاتل مروان بن محمد ومعه أربعون ألفا. ثم انصرف إلى الموصل، وانضم إليه أهلها. وتبعه مروان، فتراجع الحرورية إلى البصرة بعد معارك. ثم خرج إلى عمان فقتل هناك. الطبري، تاريخ، جـ ٩، ص١٠٢. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٢٠٨-٢١٠. المقريزي، المواعظ، جـ ١، ص ٣٥٥.

٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ١٤٤

٤ - المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢١٠

٥ - الخبب: العدو. لسان العرب، جـ ١، ص٣٤١،

٦ - السرى: السير ليلا، لسان العرب، جـ ٤، ص ٣٨٩.

الزمان ذلك المقدار من البلاد. والصفة الثالثة: أن الخارجي موصوف عند الناس بأنه إن طلب أدرك، وإن طُلب فات[1]. ودليل ذلك الرواية التي ذكرها الجاحظ :

**إن الحرورية الحرى إذا ركبوا ... لا يستطيع لها أمثالك الطلبا**

**إن يركبوا فرسا لا تركبي فرسا ... ولا تطيقي مع الرجالة الخببا**[2]

والصفة الرابعة: خفة أحمالهم، فهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الأموال الكثيرة، والجنان الملتفة، والدور المشيدة، ولا ضياعا ولا مستغلات، ولا جواري مطهمات، وأنهم لا سلب لهم ولا مال معهم فيرغب الجند في لقائهم، وإنما هم كالطير لا تدخر ولا تهتم لغد، ولها في كل أرض من المياه والأقوات ما تتبلغ به، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجنحتها تقرب لها البعيد، وتسهل لها الحزون[3].

والصفة الخامسة: أنه وعلى الرغم من قلة عددهم إلا أن الخارجي قادر على أن يقاتل بحرية أكثر، فهم لم يكونوا يعرفون لا بشارات ولا بلباس، فأعطاهم ذلك سرعة الحركة والهجوم والاختفاء. أن الملوك إن أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أوزارهم وأثقالهم، وليقووا على التنقل كقوتهم، لم يقووا عليهم؛ لأن مائة من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج؛ وإن كثفوا الجيش بالجيش، وضاعفوا العدد بالعدد ثقلوا عن طلبهم، وعن الفوت إن طلبهم عدوهم[4]. **"متى شاء الخارجي أن يقرب منهم ليتطرفهم أو ليصيب الغرة منهم، أو ليسلبهم، فعل ذلك ثقة بأنه يغتم عند الفرصة ورؤية العورة، ويمكنه الهرب عند الخوف. وإن شاء كبسهم ليقطع نظامهم، أو ليقتطع القطعة منهم. فهذه هي مفاخرهم وخصالهم، التي لها كره القواد لقاءهم"**[5].

وخصلة سادسة تمثلت بالرعب الذي دب بقلوب أعدائهم حتى ضربت الأمثال بقوتهم، كقول الشاعر:

**إذا ما البخيل والمحاذر للقرى ... رأى الضيف مثل الأزرقي المجفف**[6]

---

١ - الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص٤٩٤

٢ - الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ٢٧١

٣ - الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ص٤٩٤

٤ - المصدر نفسه، ص٤٩٤

٥ - المصدر نفسه، ص٤٩٤

٦ - المصدر نفسه، ص٤٩٤

ذكر الجاحظ من رؤسائهم عمران بن حطان "ومن خطباء الخوارج وعلمائهم ورؤسائهم عمران بن حطان"[1]. ومن علمائهم وشعرائهم وخطبائهم" حبيب بن خدرة الهلالي، وعداده في بني شيبان"[2].

وأشار الجاحظ في مصنفاته إلى عدد من خطباء الخوارج، منهم قطري بن الفجاءة. فقد أوضح الجاحظ أنه خرج زمن مصعب بن الزبير وظل عشرين سنة يناوئ الدولة الأموية[3]، وله خطبة طويلة مشهورة، وكلام كثير محفوظ، وكانت له كنيتان: كنية في السلم، وهي أبو محمد، وكنية في الحرب، وهي أبو نعامة. ومن مطلع خطبته " أما بعد فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة وحليت بالآمال"[4].

ومن خطباء الخوارج أيضا القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة[5]، وكان صفريا، وكان خطيبا ناسبا، ويشوب ذلك ببعض الظرف والهزل[6]. ومن خطبائهم: شبيل بن عزرة الضبعي[7]، صاحب الغريب. وكان راوية خطيبا، وشاعرا ناسبا، وكان سبعين سنة رافضيا ثم انتقل خارجيا صفريا. والضحاك بن قيس الشيباني[8]، ويكنى أبا سعيد، وهو الذي ملك العراق، وسار في خمسين ألفا، وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وسليمان بن هشام، وصليا خلفه[9]، وقال شاعرهم:

الم تر أن الله اظهر دينه ... وصلت قريش خلف بكر بن وائل[10]

ومنهم ابن عطاء الليثي الذي كان يسامر الرشيد، وكان صاحب أخبار وأسمار وعلم بالأنساب، ومنهم عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن كريز، راوية ناسبا، وعالما بالعربية فصيحا[1].

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٨٠

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٨٠

٣ - المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٨٦.

٤ - المصدر نفسه، جـ ١، ص ٢٧٧.

٥ - من بني ضبة وكان عالما بالقضاء. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ١١، ص ٣٨٥.

٦ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٧٧.

٧ - المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

٨ - المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

٩ - المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

١٠ - المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

## خامساً: المعتزلة

فرقة كلامية يسمون أهل العدل والتوحيد[٢] يخالفون أهل السنة في بعض المعتقدات، على رأسهم واصل بن عطاء[٣] الذي اعتزل بأصحابه حلقة الحسن البصري والواحد يسمى معتزلي[٤]. ظهرت المعتزلة في أواخر العصر الأموي. ويرى المسعودي أن الخليفة يزيد بن الوليد كان يذهب إلى قول المعتزلة في الأصول الخمسة[٥].

اختلف المؤرخون في بواعث ظهور مذهب المعتزلة، واتجهت رؤيتهم إلى العامل الديني حيث إن الاعتزال حدث بعد اختلاف في بعض الأحكام كالحكم على مرتكب الكبيرة[٦]. بعد اعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري في الحكم على مرتكب الكبيرة، وكان الحكم أنه ليس بكافر[٧]. وتقول الرواية أن واصل بن عطاء لم ترقه هذه العبارة وقال هو في(منزلة بين منزلتين)، أي لا مؤمن ولا كافر .وبسبب هذه الإجابة اعتزل مجلس الحسن البصري وكون لنفسه حلقة دراسية وفق ما يفهم ويقال حين ذاك أن الحسن البصري أطلق عبارة اعْتزِلنا واصل[٨].

---

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٧٨

٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ٢، ص٤٣

٣ - كان لواصل بن عطاء الكثير من الكتب والمؤلفات التي ضاع أكثرها ولم تصل إلا في سطور الكتب القديمة ومن هذه المؤلفات كتاب المرجئة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب معاني القران، وكتاب الخطب في التوحيد والعزل. الأشعري، مقالات الإسلاميين، جـ ١، ص ٤٨

٤ - لسان العرب، جـ ١١، ص ٤٤٠.

٥ - المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٤٤-٤٤٦. ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، تحقيق الدكتور علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي، دار المطبوعات الجامعية ، القاهرة: ١٩٧٢م، ص١٢٠. EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ ,p٨٩.

٦ - ذكر الإمام البغدادي أن واصلاً كان من تلاميذ الحسن البصري وكان الناس يومئذ مختلفين في أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرق، فرقة تزعم أنه كافر، وأخرى يرجئون أصحاب الكبائر لاعتقادهم أنه لا يضر مع الإيمان ذنب. عبد الحميد، عرفان. دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية. بغداد: ١٩٧٧م، ص٢٣ (سيشار إليه فيما بعد: عرفان، دراسات).

٧ - الحموي، ثمرات الأوراق، ص٤

٨ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٨

وقيل إنهم سموا معتزلة؛ لأنهم كانوا رجالاً أتقياء متقشفين معرضين عن ملاذ الحياة الدنيا، وكلمة معتزلة تدل على أن المتصفين بها زاهدون في الدنيا. وقيل إنهم سموا بذلك؛ لاعتزالهم السياسة وانصرافهم إلى دراسة العقائد. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٥٤. الهمذاني، القاضي عبد الجبار. شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار. تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة: ١٩٦٥م، ص٧٧٢-٧٧٣ (سيشار إليه فيما بعد: الهمذاني، شرح الأصول الخمسة).

كانت هناك ظروف سياسة وراء ظهور حركة الاعتزال في هذه المرحلة التاريخية والمتمثلة بالفتوحات الإسلامية على الجبهة الشرقي خاصة، ودخول أمم عديدة وشعوب كثيرة في الإسلام أدخلت معها ثقافات مختلفة، ولم يعد المنهج التقليدي يفي حاجات المسلمين العقلية في جدالهم، فرأت السلطة العباسية في منهج المعتزلة العقلي أفضل منهج لمواجهة الخصوم السياسيين والانفتاح على الثقافات الأخرى وخاصة اليونانية[١].

واستمر مذهب الاعتزال ينمو إلى أيام الرشيد حتى أصبح المذهب الرسمي في خلافة المأمون[٢]. فقد عرف عن المأمون تقريبه لأئمة المعتزلة وتودده إليهم وإكرامه لهم فتأثر بهم وبمذهبهم[٣]. حتى أن الدولة كانت تدفع للجاحظ راتبا أيام عز المعتزلة وسيطرتهم على زمام السلطة، فلما دالت دولتهم منذ عهد المتوكل قطعت عنه[٤]. ويضحى الجاحظ واحدا من المعتزلة كأستاذه النظام أحد أئمة المفكرين، وشيخا للمعتزلة في ذاك العصر. كانت مدة ازدهار الاعتزال قصيرة ولمّا لم يعد مذهب الخلفاء والأمراء الرسمي وفقد الحماية الرسمية خسر مكانته بسرعة كما تعرض أصحابه للمضايقات[٥]، وأغلب تراث المعتزلة تم تدميره[٦].

بدأت المعتزلة بفكرة أو بعقيدة واحدة، ثم تطور خلافها فيما بعد، ولم يقف عند حدود تلك المسألة، بل تجاوزها ليشكل منظومة من العقائد والأفكار، والتي في مقدمتها الأصول الخمسة الشهيرة التي لا يعد معتزلياً من لم يقل بها[٧]، ونبتدئ بذكر الأصول الخمسة: التوحيد : ويعنون به إثبات وحدانية الله ونفي المثل عنه، وقالوا أن صفاته هي عين ذاته فهو عالم بذاته قادر بذاته لا بصفات زائدة عن الذات، وقد درج مخالفوهم من المغرضين على تفسير ذلك بأنهم ينفون الصفات عن الله[٨].

---

١ - ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، تحقيق الدكتور علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي، ص ٤.

٢ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٥٧. الحموي، ثمرات الأوراق، ص ٤. المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ ٣، ص ١٠٢. بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٩١. نوري، الجاحظ، ص ٣.

٣ - الحموي، ثمرات الأوراق، ص ٤. الزويري، الإمامة، ص ٢٩. هياجنه، الجاحظ مؤرخاً، ص ٢١

٤ - جبر، الجاحظ ، ص ٢٢. ٣٤٤ EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ ,p

٥ - الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص٤٠٦.

٦ - للتفصيل حول موقف الخلفاء العباسيين من مذهب المعتزلة يمكن الرجوع إلى الفصل الأول تحت عنوان ميول الجاحظ السياسية.

٧ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص٨٥

٨ - المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٤٤

العدل ويعنون به قياس أحكام الله على ما يقتضيه العقل والحكمة، وبناء على ذلك نفوا أن يكون الله خالقا لأفعال عباده، وقالوا: إن العباد هم الخالقون لأفعال أنفسهم إن خيرا وإن شرا، قالت المعتزلة: " **إن جميع أفعال العباد من حركاتهم وسكونهم في أقوالهم وأفعالهم وعقودهم لم يخلقها الله عز وجل**"[١]. وأوجبوا على الخالق فعل الأصلح لعباده، قال الشهرستاني :"**اتفقوا - أي المعتزلة - على أن الله لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه عندهم خلاف وسموا هذا النمط عدلا** "[٢]، وقالوا أيضا بأن العقل مستقل بالتحسين والتقبيح، فما حسنه العقل كان حسنا، وما قبحه كان قبيحا، وأوجبوا الثواب على فعل ما استحسنه العقل، والعقاب على فعل ما استقبحه[٣].

المنزلة بين المنزلتين وهذا الأصل يوضح حكم الفاسق في الدنيا عند المعتزلة، وهي المسألة التي اختلف فيها واصل بن عطاء مع الحسن البصري[٤]، إذ يعتقد المعتزلة أن الفاسق في الدنيا لا يسمى مؤمنا بوجه من الوجوه، ولا يسمى كافرا بل هو في منزلة بين هاتين المنزلتين، فإن تاب رجع إلى إيمانه، وإن مات مصرا على فسقه كان من المخلدين في عذاب جهنم[٥].

الوعد والوعيد[٦] مقصود به إنفاذ الوعيد في الآخرة على أصحاب الكبائر وأن الله لا يقبل فيهم شفاعة، ولا يخرج أحدا منهم من النار، فهم كفار خارجون عن الملة مخلدون في نار جهنم، قال الشهرستاني:" **واتفقوا - أي المعتزلة - على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض. وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط وعدا ووعيدا**"[٧].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا الأصل يوضح موقف المعتزلة من أصحاب الكبائر سواء أكانوا حكاما أم محكومين، قال الإمام الأشعري في المقالات :" **وأجمعت المعتزلة إلا على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان واليد والسيف كيف قدروا على**

---

١ - ابن حزم، الفصل في الملل، جـ ٤، ص ١٤٦.

٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٤٥

٣ - المسعودي، مروج الذهب، ١، ص ٤٤٤

٤ - المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٥، ص ١٤٢. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٢٨، ٤٦، ٤٨. أبو الفداء، المختصر، ص ١٤٥. الحموي، ثمرات الأوراق، ص ٤

٥ - المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٤٤

٦ - المصدر نفسه، ص ٤٤٤

٧ - الشهرستاني، الملل والنحل، جـ ١، ص ٤٥

ذلك"[1] فهم يرون قتال أئمة الجور لمجرد فسقهم، ووجوب الخروج عليهم عند القدرة على ذلك وغلبة الظن بحصول الغلبة وإزالة المنكر[2].

واشتهرت المعتزلة بعلم الكلام الذي يقصد به الجدل الديني في الأمور العقيدية ويسمى المشتغلون به المتكلمون، وتعد المعتزلة من أشهر فرقهم حيث دخلوا في محاورات ومجادلات مع غيرهم من المرجئة والرافضة والشيعة، والنصارى، واليهود، والمانويين. وترفع المعتزلة من فضيلة الكلام ويقول الجاحظ في هذا الجانب :" **والشكر لا يكون إلا بالكلام ثم إن الكلام آلة الشكر على النعمة. وقد أوجب الله الشكر وقال لئِنْ شكرْتُمْ لأزِيدنكُمْ، وأعظم دليل على فضيلة الكلام، هو الحاجة إليه لإثبات وجود الله وتصديق رسالة النبي، ومعرفة حقائق الأديان، والتمييز بين الحجة والشبهة، ودعم مبادئ المعتزلة في التعديل والتوحيد والاختيار**"[3]

يستعمل الجاحظ اللفظ - علم الكلام- لإثبات وجود الله وتصديق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ومعرفة حقائق الأديان، والتمييز بين الحجة والشبهة، ودعم مبادئ المعتزلة في التعديل والتوحيد والاختيار وذلك في رسالة تفضيل النطق على الصمت وقد يتبادر إلى الذهن أن الجاحظ يناقض نفسه ويقول الشيء وضده[4]. لكن الحقيقة أن الجاحظ في هذه الرسالة يذم الصمت ويمدح الكلام من ذلك قوله "**إني وجدت فضيلة الكلام باهرة، ومنقبة المنطق ظاهرة، في خلال كثيرة، وخصال معروفة، ولم أجد للصمت فضلاً على الكلام مما يحتمله القياس، لأنك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام به** "[5].

ويظهر أسلوب الجاحظ المعتزلي في ناحية أخرى من خلال رسالة كتمان السر وحفظ اللسان التي يدعو فيها إلى تقييد اللسان ويحث على السكوت. والواقع أن الجاحظ لا يقع في التناقض وإنما يسوق في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان أقوالا لبعض الحكماء تدعو إلى إخضاع الكلام للعقل لكي لا يأتي لغوا، يقول الجاحظ: " **فانظر بأي الأمرين قطعت عمرك؟ أبالحكمة أم باللغو؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أثنى عليه بخير من عباده فقال: " والذين هم عن اللغو مُعْرِضون "، وقال: " وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه "، وقال: " وإذا مروا باللغو مروا كراماً ". وصان عنه أسماع أهل الجنة وألسنتهم فقال: " لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً سلاماً سلاما ". وقال رسول الله صلى**

---

١ - الأشعري، مقالات الإسلاميين، جـ ١، ص ٤٤

٢ - المسعودي، مروج الذهب، ١، ص ٤٤٤

٣ - الجاحظ، رسالة تفضيل النطق على الصمت، ص ٥٦

٤ - المصدر نفسه، ص ٢٣٣

٥ - المصدر نفسه، ص٣٠١

**الله عليه وسلم: " العبادة عشرة أجزاء، تسعةٌ منها في الصمت ". وقال علي بن أبي طالب: " أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج "[1].**

وحاول الجاحظ بيان دور المعتزلة في خدمة الاسلام في أنها جادلت الثنوية[2] وردت مقالاتهم ووطأت لأهل السنة الطريق إلى إثبات عقيدتهم عند مجادلتهم للثنوية ولغيرها من الفرق وفي ذلك يقول " **إنه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل. فإن لم أقل، ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة، فإني أقول: إنه قد أنهج لهم سبلا، وفتق لهم أمورا، واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة. واسترقت، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون"[3].**

كانت المعتزلة تؤمن بالعقل، كما كان علم الكلام والجدل موضوع كل مجلس وكل منتدى، فنزع الجاحظ نزعة اعتزالية، وإذا كان أساتذة عصره قد طبّعوا الجاحظ بميزات فكرية وأدبية ولغوية وعلمية فريدة، فإن المعتزلة تركت آثارها العقلية عميقة في كتاباته، وطرائق تفكيره وتأليفه. وبات له نمط واضح ثابت، يستدلّ عليه من كتبه. الجاحظ يُعَدُّ صاحب رسالة في الإصلاح الاجتماعي عليه أن يؤديها دون تقية أو خوف عملا بمبدأ المعتزلة الداعي إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4] **"كل امرئٍ فحسيب نفسه، غير مأخوذ بغيره، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة. وقال الله جل ثناؤه - وقوله الحق - " كل امرئٍ بما كسب رهينٌ "[5]. وقال: " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم "[6]. وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع السيف والسوط "[7].**

ومن منطلق اعتزاله، حاول إظهار وسطية المعتزلة ويظهر ذلك جلياً من إبرازه لمبدأ المنزلة بين المنزلتين، أي التوسط في الأحكام بين الإفراط والتفريط، وبين الإيمان والكفر في حق مرتكب الكبيرة. فالمعتزلة لا يغلون كالخوارج فيكفرون عليا، ولا يقصرون كالمرجئة فيعلقون الحكم ويتركون الأمر لله، وإنما يقتصدون ويتوسطون وهذا الاشتقاق، التوسط

---

١ - الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ص١٠٨.

٢ - الثنوية أصحاب المقنع، سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم خلافا للمسودة من أصحاب الدولة العباسية. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ١، ص١٤٢-١٤٣. لسان العرب، جـ ١٠، ص١٤٧.

٣- الجاحظ، الحيوان، جـ ٤، ص ٣٦٠

٤ - الجاحظ، مقدمة كتاب البخلاء، ص ٦

٥ - سورة الطور، الآية ٢١.

٦ - سورة المائدة، الآية ١٠٥.

٧ - الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ص ١٦٣.

والاقتصاد هو الاعتزال لغلو من غلا وتقصير من قصر" أن نقضي بأنه كفر إلا بعد أن نجد من ذلك بدا فيكون الحق أحق ما قضي به وصبر عليه. فمن كانت- حفظك الله- هذه سيرته وطريقته في أدنى أوليائه، فكيف تظنه في ارفع أوليائه؟ فهذا ما لا يحل لي أن أظنه بعلي بن أبي طالب، فإن كان عندك برهان واضح ودليل بين يكشف لنا عن الحال حتى يتبين به انه كان سببا في إراقة دمه، فعلينا السمع واليقين والإقرار، وعليك البيان والإفهام بالدليل والحرص"[1].لقد أوضح الجاحظ في هذه الرواية طريقة المعتزلة في الحكم على الناس بمن فيهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . وهي طريقة تتسم بالاعتدال وتتجنب الغلو والتقصير، وتضع درجات في سلم الأعمال تتوسط بين الكفر والإيمان وهذه الدرجات هي الصواب والخطأ والخطيئة والإثم والضلال. ثم تلتزم بعدم إصدار الحكم إلا بعد توافر الأدلة التي تفضي إلى اليقين. وبسبب قدرتهم الكبيرة علي الجدال والإقناع يحسب لهم محاربتهم لظاهرة الزندقة التي انتشرت بين كثير من الناس في ذلك العصر ورجع كثير من هؤلاء إلى الإسلام[2].

وأبرز الجاحظ رأي المعتزلة لمسألة الإمامة، فقد أكد على أن المعتزلة تذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ولا اجتمع المسلمون عندهم على رجل بعينه[3]، وأن اختيار ذلك مفوضُ إلى الأمة تختار رجلاً منها ينفذُ فيها أحكامه، سواء كان قرشياً أم غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان، ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره، وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك وإلى هذا المعنى يشير الجاحظ بقوله: " وأن الناس إن تركوا أن يقيموا إماماً واحداً جاز لهم ذلك، ولم يكونوا بتركه ضالين ولا عاصين ولا كافرين؛ فإن أقاموه كان ذلك رأياً رأوه، وغير مضيق عليهم تركه. ولهم أن يقيموا اثنين، وجائز لهم أن يقيموا أكثر من ذلك، ولا بأس أن يكونوا عجما وموالي، ولكن لابد من حاكم، واحداً كان أو أكثر على حال"[4].

وبناء على هذه القاعدة لا يجد الجاحظ دليلا كافيا يتبين منه أن عليا كان سببا في إراقة دم عثمان - رضي الله عنه - من أجل الإمامة، فيصدر عليه حكما بالكفر. أما معاوية فلا يستحق الإمامة لعدم توافر أسبابها فيه، وقد اغتصبها بالقوة والخديعة ومختلف الوسائل التي توافق الكتاب والسنة وتخالفهما على عكس علي الذي كان يلتزم الكتاب والسنة ولا يلجأ إلى المكائد.

---

١ - الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٨١.

٢ - خليفة، تيار الشعوبية، ص ٦٠

٣ - المسعودي، مروج الذهب، جـ١، ص ٤٤٤

٤ - الجاحظ، رسالة في جوابات الإمامة، جـ ٤، ص ٢٨٥.

ولكن هذه الخصال كما يرى الجاحظ لا تكفي وحدها لاستحقاق الإمامة. فالإمامة لا تستوجب إلا بالتقدم في الفضل والسوابق، على أن يكون ذلك الفضل ظاهرا ومشهورا عند الناس، أو بالشورى، أو بالميراث، أو بالوصية، أو باجتماع القرابة وحرمة العترة بالإضافة إلى الخصال الكريمة[١].

هذه الوجوه الخمسة لاستحقاق الإمامة عددها الجاحظ لأنها تمثل آراء أهم الفرق في عصره[٢]. فالمعتزلة قالوا بالوجه الأول وقد عرضه الجاحظ في رسالة العثمانية "**فلما كان أبو بكر وعلي بن أبي طالب على ما وصفنا وذكرنا، علمنا أن أفقههما أفضل فضلا وأولى بالإمامة** "[٣]، والعباسيون قالوا بالوجه الثاني المتمثل في تعيين عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - الستة الذين جعلهم شورى وقد بسطه الجاحظ في رسالة العباسية " **إنهما لم يجحدا التنزيل ولم ينكرا النصوص، ولكنهما بعد إقرارهما بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة، ادعيا رواية وتحدثا بحديث لم يكن محالا كونه ولا ممتنعا في حجج العقول مجيئه، وشهد لهما عليه من علته مثل علتهما فيه**" [٤]، والشيعة الإمامية قالوا بالوجه الرابع " **أو يكون ذلك نتيجة خصال كريمة لاقت القرابة وحرمة العترة، فبلغ صاحبها باجتماع الخصلتين ما لا يبلغه صاحب الواحدة ويكون مقنعا للإلف لأنه أمس بالمعدن وأقرب من صاحب المقام وأحرى أن لا يخفى مكانة على بعيد**"[٥] .

أما الزيدية فقالوا بالوجه الخامس " **اللهم إلا بما أخص به العترة بسبب القرابة** "[٦]. لكن معاوية كما يرى الجاحظ لا يستحق الإمامة تحت أي وجه من الوجوه التي عرضها.

---

١- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٢٩.

٢ - EL-'ATTAR, THOUGHT OF AL-JÄHIZ,p ٣١

٣- الجاحظ، العثمانية، ص ٦٠

٤- الجاحظ، رسالة العباسية، ٤٦٨

٥- الجاحظ، رسالة الحكمين، ص ٣٤٤.

٦- المصدر نفسه، ص ٣٦٩.